عزيز نيسين

يساري أنت؟!!... أم يميني؟!!



مجموعة قصصية مختارة

علاء الدين

يساري أنت أم يميني؟!!!

Hsg Nesin, A. Yasarı anta am yamını?!!! 1 /2002

I samlingens titelnovell beskriver författaren det splittrade politiska läget i landet. En bybo åker till Istanbul för att söka jobb. Han hamnar slumpmässigt i olika demonstrationståg och i varje demonstrationståg blir han misshandlad.

يساري أنت أم يميني؟!!!

للكاتب التركي: عزيز نسين



نقلها عن التركية: جمال دورمش

قدم لها: الدكتور والأديب عادل الفريجات

منشورات دار علاء الدين

- يساري أنت أم يميني؟!!!
- تأليف: عزيز نسين.
- ترجمة: جمال دورمش.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.

- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: المهندس محمد طه.
- الإخراج الفني: أسامة رحمة.
- يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

تقديم

بقلم: الدكتور عادل الفريجات

حين طلب إليَّ الأستاذ المترجم جمال دورمش أن أكتب مقدمة لترجمته لهذه المجموعة القصصية الساخرة، للكاتب التركي (عزيز نسين)، صادف ذلك مني رضىً وترحاباً. لأن الأدب الساخر، الذي يُعد (نسين) علماً كبيراً من أعلامه، يستهويني ويطربني، ولأنني لا أملك إلا أن أستجيب لكل واثق بي وبكتاباتي، عملاً بالقول القائل: "مَن ظنَّ بك خيراً، فصدق ظنه".

وكنت قد قرأت لهذا الكاتب المبدع أكثر من مجموعة قصصية ورواية. وفي دراسة لي سابقة حول الأدب الساخر نشرته مجلة المعرفة بدمشق _ العدد (٤٤٧) حاولت التعرف إلى هذا الكاتب الكبير ومدى حضوره في الساحة الثقافية العربية، فعلمت أنه ترك بعد وفاته في العام ١٩٩٥ (١١٢) كتاباً مطبوعاً، وأن وراءه إرثاً كتابياً آخر مازال مخطوطاً. ومطبوعاته ومخطوطاته تتراوح ما بين القصة والرواية والمسرح والشعر والمقالة الصحفية.

وكان نسين قد ولد في العام ١٩١٥ لعائلة معدمة، وعانى الكثير في حياته، فوضع تحت المراقبة، وسجن لسنوات عدة. ويُقال إن إقامته في السجن كانت أطول من إقامته خارجه. وقد عمل بالتجارة والصحافة، وتنقل ما بين بقال وصاحب مكتبة وضابط ومصور فوتوغرافي... وطلقته زوجاته الثلاث، وترك وراءه ثلاثة أولاد وابنة.

وقد أصدر نسين بالتعاون مع صديقه صباح الدين علي جريدة في العام ١٩٤٦ باسم (ماركو باشا) وصلت مبيعاتها إلى ستين ألف نسخة يومياً. وبعد سن الخمسين حصل على جواز سفر تركي بعد أن كان ممنوعاً من مغادرة بلاده، وهذا مكنه من حضور مؤتمرات أدبية عالمية.

وكان نسين قد بدأ بالكتابة وهو في سن الأربعين، وبعد أن رسخت قدمه فيها حصد عدة جوائز، منها الجائزة الأولى لعامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ في المسابقة العالمية للكتابة الساخرة التي جرت في إيطاليا باسم بودغيرا، وجائزة القنفذ الذهبي لأفضل كتابة ساخرة من بلغاريا في العام١٩٦٦، وجائزة التمساح الدولية للكتابة الساخرة التي أقامتها مجلة التمساح السوفيتية في العام ١٩٦٩، وجائزة المجمع اللغوي التركي في العام ١٩٦٩، وجائزة لوتس التي يمنحها اتحاد كتاب أسيا وأفريقيا وذلك في العام ١٩٧٥.

وانتخب نسين رئيساً لاتحاد كتاب تركيا في العام ١٩٨٠. وقد زار كلاً من مصر والعراق وسورية قبل وفاته في العام ١٩٩٥ كما ذكرنا.

وأنشأ نسين وقفاً باسمه نذر له ريع أعماله الأدبية الغزيرة لمساعد الأيتام واللقطاء والطلبة الدارسين الفقراء. وفي مجموعته هذه قصة بعنوان "تدوين تلك الليلة" كتبها نسين عام ١٩٩٢، وقعت أحداثها في ذلك الميتم الذي أقامه. وفي ليلة رأس السنة يبسط الكاتب ما مر في داخله إثر نوبة قلبية ألمت به، ويخامره شعور بأن الموت منه قاب قوسين أو أدنى، ويؤلمه كثيراً أن يتعكر احتفال أطفاله بهذا العيد، ويتمنى لو يستطيع كتابة كيف يموت، يقول مثلاً:

"يا خسارة لن أستطيع كتابة كيف مت.. وأكثر ما يزعجني هو هذا الشيء. فالكاتب حتى لو دوّن كل لحظات حياته إلا أنه سيبقى عاجزاً عن كتابة موته. على الرغم من أن الموت من أهم حوادث الحياة، وهاأنذا ذاهب دون تدوين أهم لحظة من لحظات حياتي". والحق أن هذه القصة هي القصة الوحيدة غير الساخرة في هذه المجموعة.

إن عظمة إنتاج عزيز نسين وغزارته مكنتاه من أن يصبح بحق كاتباً عالمياً، فقد ترجم أدبه إلى عشرات اللغات العالمية. ويهمنا هنا أن نشير إلى ترجمات أدب نسين إلى عربيتنا، فقد ترجم له عبد القادر عبد اللي: رواية زوبك - الكلب الملتجئ في ظل العربة (١٩٨٨) والحمار الميت (١٩٨٩) وفي إحدى الدول (١٩٩٠) ورواية الطريق الوحيد (١٩٩٧)، وترجم له عمر عدس: أطفال آخر زمن (١٩٩٨)، وفاروق مصطفى: كيف ينقلب الكرسي (١٩٩٢)، وترجم أحمد الإبراهيم: كيف قمنا بالثورة (١٩٩٨) وآلة الخطابات (٢٠٠٠)، وترجم فاضل جتكر: مختارات قصصية لعزيز نسين (١٩٨٣).

ولعل مترجم هذه المجموعة الأستاذ جمال دورمش هو الأكثر عناية بأدب هذا الكاتب العالمي، فقد ترجم له سبعة أعمال. والأستاذ دورمش مولود في قرية الغسانية بالجولان المحتل في العام ١٩٥٨، وهو عضو اتحاد الصحفيين، واتحاد الكتاب العرب "جمعية الترجمة"، ويتقن اللغتين التركية والروسية.

ومن حسن الطالع أن السيد دورمش ترجم هذه المجموعة التي نقدم لها عن التركية مباشرة دون لغة وسيطة. وهذا شأن يصب في صالح أمانة النص. وقد دعي الأستاذ المترجم لحضور مؤتمر أدبي عن عزيز نسين عقد في ألمانيا في العام ١٩٩٩، ولهذا فهو يكاد يكون

متخصصاً بأدب هذا الكاتب، أو على الأقل متابعاً لما يدور حول أدبه من نشاطات ثقافية. ولا غرو في ذلك، فقد ترجم الأستاذ دورمش لنسين من الأعمال:

١- آه منا نحن معشر الحمير (١٩٩٤)
٢- العرض الأخير (١٩٩٥)
٣- يسلم الوطن (١٩٩٦)
٤- خصيصاً للحمير (١٩٩٧)
٥- حكاية البغل العاشق (١٩٩٨)
٦- العسل المبرطم (٢٠٠٠)
٧- يساري أنت أم يميني (٢٠٠٢)

وهو يقوم الآن بكتابة دراسة حول العنف السياسي والديني في تركيا في القرن العشرين.

وقد قرأت ترجمة السيد دورمش لمجموعة نسين هذه الأخيرة، وأكبرت فيها اهتمامه بكاتب عالمي كبير، وحرصه على إغناء مكتبة الأدب العربي الحديث عامة والأدب القصصي خاصة بتجربة ناضجة وجاذبة وذات ميسم إنساني تقدمي في الوقت نفسه، تجربة استطاع صاحبها تحويل الحزن إلى فرح، وتمكين النفس الإنسانية من أن تتحمل قدرها الغاشم، من خلال ابتسامة ساخرة تجابه بها قسوة الحياة وعبثها. وقد كتب نسين في مقدمة مجموعته القصصية التي طبعتها وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٣ يقول: "سيميائيو العصور الوسطى عجزوا عن قلب الحجر إلى ذهب، أما أنا فسيميائي نجحت في قلب دموعي إلى ضحكات قدمتها للعالم".

والحق أنك، وأنت تقرأ عزيز نسين، تشعر للتو بأنك في حضرة كاتب ساخر من الطراز الأول، وسخريته لاذعة، إنه كما يقول عنه

سليمان الشيخ: "صاحب حساسية دقيقة فائقة في التقاط المفارقة الكامنة في الكثير من تفصيلات الحياة، وهو يملك تداخلاً محبوكاً بدقة وتسلسلاً موزعاً بسلاسة واقتدار (مجلة العربي - الكويت عدد ٣١٠ لعام ١٩٨٤)

وهذه الميزة في أدبه نلمسها لمس اليد في كثير من قصص هذه المجموعة التي تضم إحدى عشرة قصة بدءاً من قصته "حتى التزوير لا يمكنوننا من القيام به"، وانتهاء بقصته "خالي جيانغ واو". وفي هذه القصة الأخيرة يخبرنا نسين بأن خاله المحارب القديم والمعوق، مطلوب إلى المخفر من قبل الخفير يونغ تشي، ويمتنع الخال عن تلبية الطلب رغم إلحاح الخفير وتهديده، ويغضب، ويشرع في شتم الخفير، وشتم كل من عيّنه بأقسى الشتائم، ثم يطور شتائمه على المفوض، ثم على من سن القوانين، ثم على الحكومة...

وعندما يحضر إلى رئيس المخفر يعيد الشتائم ذاتها، وبجرأة أمام رئيس المخفر، ثم يعيدها على المفوض دون أن يغير فيها حرفاً واحداً، ويعيدها أيضاً أمام النائب العام، ويعيدها أخيراً أمام المحكمة... ورغم أن محامي الخال "جيانغ واو" طلب منه عدم الاعتراف بما نسب إليه من سب المقام المقدس وأشخاص عدة مسؤولين، أصر الخال على الاعتراف بالشتم، وبعدد أسماء الأشخاص الكبار الذين شتمهم. وعندما كان يكرر شتائمه لهم كانت إمارات الراحة تبدو على أسارير القاضي... واستمرت المحاكمة أكثر من سنتين، وكان المحامي يستغرب ذلك، ويعبر عن عدم فهمه لأسباب إطالة مدة المحاكمة... ثم صدر عفو عام وطوي الملف نهائياً. ولما مات الخال شارك جميع أهالي منطقته بتشييعه، وكان بينهم الخفير "تشي" والمفوض وعناصر المخفر والقاضي. وجميعهم كانوا يتذكرون

شتائم الخال ويرددونها، وقد أطلقوا عليه أهم الشتامين.

و هكذا يصوغ الكاتب قصته بحذق وبراعة وإيقاع وتفاصيل لا تزيد ولا تنقص عن مقتضى الحال، مقدماً لوحة كاملة عن شخص أو حالة أو موقف أو تفكير تثير الابتسام وتبعث الإضحاك.

والحق أن الأدب الساخر لا يسخّر للإضحاك فحسب، بل له أهداف وغايات أخرى. ومن أهم أهدافه تكريس السلوك السليم، والتصرف المستساغ، وتعديل مجرى اتجاه متطرف، والهزء ممن يجارون المنحرفين والمسيئين... وقد يتم الإضحاك من خلال اللعب على الكلمات، أو العبث بالمفاهيم وتشويهها، أو استثمار المواقف المتعارضة والمتناقضة، أو تكبير الصغائر أو تصغير الكبائر، أو إبراز سمات النفس المريضة على نحو مستهجن ومفاجئ وغريب ومبالغ فيه، أو نبش حقيقة داخلية تتحين الفرص لظهورها، كما هي الحال في قصة (نسين) الأخيرة، التي كشفت على نحو ذكي وغير مباشر أن القاضي ينطوي على رغبة في شتم المسؤولين والحكومة في بلاده، ولكنه لا يفصح عن ذلك... وقد أطال مدة محاكمة الخال "جيانغ واو" لهذا الغرض بعينه، لأنه وجد هذا الخال يتكلم بلسان حاله تماماً.

إن أدب السخرية والضحك أدب عالمي لا يختص به شعب دون آخر. وفي وسعنا أن نذكر عند كل شعب كاتباً ساخراً كبيراً، فلليونان (أرستوفان) وللعرب (الجاحظ) وللإسبان (سرفانتس) وللفرنسيين (موليير) وللإيرلنديين (جورج برناردشو) وللأمريكيين (مارك توين) وللألمان (غونتراغراس).

وفي تراثنا العربي لم يكن الجاحظ الساخر الوحيد، فثمة البهلول وجحا العربي والحطيئة وأبو العيناء وابن مماته صاحب رسالة "القاشوش في أحكام قراقوش".

وفي التراث التركي ظهر نصر الدين خوجا الذي يقابل جحا العربي.. وقد أفاد عزيز نسين منه، كما أفاد من بعض كتب الأدب العربي القديم، مثل كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة.

وخلاصة القول: إن السخرية لون أدبي صعب الأداء يتطلب موهبة خاصة وذكاء حاداً وبديهة حاضرة. وهو في الوقت الذي يسعى للغض من السلوك المنحرف، ويهزأ من الخروج على الأعراف والمفاهيم والتقاليد، يحفظ للمجتمع كيانه. كما يمتاز بوظيفة نفسية حذقها "عزيز نسين" أفضل حذق، وتتمثل بكسر حد الجدية المفرطة والتجهم الكريه، فالحياة بلا نكتة يصعب أن تعاش.

وقد كان الضحك علاجاً لكثير من المشكلات وتنفيساً عن كبت وترويحاً عن قهر، وهو في كل نتائجه، إن لم يخرج إلى شطط، نافع ومجدٍ. وجدواه لا تقتصر على خاصة الناس الذين يقبلون على الأدب الساخر، بل تمتد إلى عامتهم الذين نجدهم يهوون الفن الضاحك ويرتاحون للعمل (الكوميدي) مسرحاً وتلفازاً وسينما، أكثر من راحتهم للفن الجاد والعمل التراجيدي. وفي هذا لغز ينبغي أن نتأمل فيه ومسألة جديرة بالتمحيص والتحليل. فهل الحياة ملهاة أكثر منها مأساة؟.. أم هي مأساة لا بد من ملهاة معها لنحتملها؟؟؟

دمشق في ٢٠٠٢/١/١

الدكتور عادل الفريجات

حتى التزوير لا يمكّنوننا من القيام به

كان أكبر مزور عملة على مر العصور. لم يتبجح بذلك إطلاقاً. بل العكس تماماً، فقد كان متواضعاً إلى درجة ملفتة للنظر، فلم يسمع منه في يوم من الأيام أنه تبجح بنفسه، كما هو معروف عن ذوي السوابق من لصوص وقطاع طرق ونصابين وما شابه - من حب التباهي بمغامراتهم، وتضخيمها آلاف المرات، مستفيدين في ذلك من خصوبة خيالهم وسعة أفقهم، وكذلك من قدرتهم على انتحال أعمالٍ لم يقوموا بها. هكذا يفبركون الأمور من سرقة ونصب واحتيال وقطع طرق. ولكثرة ما يرددونها يصلون إلى مرحلة يصدقون فيها أنفسهم أنهم فعلاً قد قاموا بتلك الأفعال، أليسوا بشراً أولاً وأخيراً؟.

أما ملك المزورين فلم يكن من هذا الصنف إطلاقاً، كان ملكاً حقيقياً، نظيف السمعة، متزناً، لا يتحدث عن إنجازاته الخارقة في التزوير، بل تتناقلها الألسن. عدا عن ذلك فهو رجل ذو خبرة وتجربة، نقي ومتزن.

و بغض النظر عن كل شيء، فهو إنسان عاش حياته بالطول والعرض، اسمه معروف في كل السجون والمعتقلات على الرغم من ندرة دخوله إليها. يكفي أن تنشر الصحف نبأ اعتقاله حتى ينتشر الخبر في السجون كانتشار النار في الهشيم.

هذا الخبر لا يدخل السعادة في قلوب الأفاقين والفقراء

والمساكين وحسب، بل حتى زعماء العنابر والحراس والسجانين وإدارة السجن، لأن دخوله إلى السجن يعني تغير أجواء السجن باعتباره مصدراً هاماً للدخل ومعيناً لا ينضب من المال.

حتى أن البكوات والأغنياء وأتباعهم كانوا يخصصون له في "قاووشهم" الخاص أفضل سرير من طابقين في أحسن موقع قرب النافذة، الطابق العلوي في الصيف، والسفلي في الشتاء. وفيما لو كان هذا السرير محجوزاً لأي شخص كان يطلب إخلاؤه منه.

و قبل وصوله، يتم اختيار ثلاثة أشخاص لخدمته، أحدهم لإعداد الطعام، والآخر لتحضير الشاي، والثالث للخدمات الأخرى.

كانت حقائبه تسبقه إلى السجن قبل وصوله، أربع حقائب كبيرة على أقل تقدير، كأنه سينزل في فندق فخم، وأية حقائب؟ فاخرة مصنوعة من جلد الخنزير لم يشاهد مثلها في كل السجون... حتى أن المساجين الأغنياء لا يمكنهم القيام بذلك لأنهم لا يمنحون مثل هذه الفرصة لإحضار حقائبهم عند القبض عليهم. لذلك فلملك المزورين مكانة خاصة.

كل ما يرتديه من الحرير الخالص، من جواربه إلى قميصه، ومن منديله إلى بيجامته ومن ياقته حتى ربطة عنقه.

منذ الصباح الباكر يقوم الخدم الثلاثة بالتنقل والدوران حول سريره، يكفي أن يفتح عينيه ويتجشأ ليحضر أحدهم طعام الإفطار، بينما يقوم الآخر بوضع الصحف الثلاث على سريره، أما الثالث فينتظر واقفاً وبيده المنشفة وصابونة معطرة متأهباً لذهابه إلى المرحاض.

بعد تناول الملك طعام إفطاره واحتساء بعض أكواب الشاي

المحضر خصيصاً له، يضع نظارتيه كي يقرأ الصحف، وبعد ذلك يذهب إلى المرحاض ومن خلفه خادمه.

أما طعام الغداء، فغالباً ما يوصى عليه من المطاعم الفاخرة، المشهورة جداً. عند المساء تجهز طاولة القمار، غالباً ما يخسر أموالاً طائلة دون أن يرف له جفن.

لم يُشاهد غاضباً في يوم من الأيام، ولم يُسمَع صراخه، ولم يرتفع صوته، كأنه ملك حقيقي من سلالة ملوك أباً عن جد.

عند دخوله السجن تتبدد الكآبة وترتسم البسمات على وجوه السجانين وتنفرج أساريرهم لأن ظروفهم الاقتصادية ستتحسن داخل السجن، وشيء طبيعي أن ينعكس ذلك على العلاقات الاجتماعية. فمدمنو المخدرات والمشروبات سيزيدون من استهلاكهم، وكذلك سينتهي الشجار والصخب داخل السجن، وستتوقف أعمال الشغب وما شابهها، وهكذا ستكون وجوه الجميع ضاحكة.

لكن ثمة قلقاً ينتاب الجميع من لحظة دخول ملك المزورين إلى السجن، لأنه سيطلق سراحه بسرعة، فأكثر مدة يمضيها عادة عدة أشهر، ريثما تبرأ ساحته أو يدفع كفالة إخلاء سبيل، وبعدها يبدأ الجميع بالتحدث عن كرمه وسخائه باستمرار.

ألقى حلاق السجن الصحيفة التي كان يقرؤها وقفز فرحاً ليصرخ بأعلى صوته "هيه".

هذا الحلاق كان محكوماً بثمانية عشر عاماً بسبب ذبح زوجته من عنقها.

سئل الحلاق عن سبب سعادته.

أجاب قائلاً:

KMH

نشرت الصحف نبأ اعتقال ملك المزورين، وغداً سيحضرونه إلى هنا.

وبانتشار الخبر في السجن خيم على السجن الفرح والسعادة..

حسب توقع المساجين تم إيقاف ملك المزورين في مديرية الأمن لمدة يومين وبناء على طلب المحققين تم تحويله إلى السجن.

دخل الملك باب السجن في اليوم الثاني من نشر الصحف الخبر التالي "ملك المزورين في قبضة العدالة" لكن دخوله هذه المرة ليس كالمرات السابقة، ففي السابق كان الملك يصل إلى السجن بعد وصول حقائبه وأغراضه وفرشه بعدة ساعات يرافقه بعض رجالاته. أما في هذه المرة فقد وصل وحيداً، نزل من سيارة الحجز مقيداً مع مساجين آخرين، معه حقيبة صغيرة بالية مربوطة بخيط ثخين لعطل في قفلها، مر بين صفين من الشرطة، منتعلاً حذاءً رثاً بالياً وكأنه ملك الزمان نزل بين رعيته متنكراً ليطّلعَ على أحوالهم.

لعل أول المندهشين والمستغربين لمشاهدته بهذه الهيئة كان رئيس حراس السجن، ومن ثم الحراس والمساجين الذين يعملون في خدمة إدارة السجن، حتى ذلك الحلاق الذي طار فرحاً لحظة قراءته خبر اعتقاله في الصحيفة أصابه الإحباط.

عندما عرف الملك أنه مثل كل مرة تم حجز أفضل سرير له في أجمل موقع، وتم فرز ثلاثة خدم لخدمته، أعلمهم أنه لا حاجة له بذلك وأنها غير ضرورية حتى أنه سينزل في أي مكان من قاووش آخر.

استغرب زعيم قاووش الأغنياء وقال له:

ما هذا الحكي؟ استغفر الله ...

لم يستطع ملك المزورين إخفاء انزعاجه من وضعه المنحط الحالي الذي كان واضحاً من قسمات وجهه.

نقل زعيم القاووش رغبة ملك المزورين إلى زعيم السجن. بينما رد عليه زعيم السجن بالانتظار وأنه لا بد أن تأتي اللحظة التي تتكشف فيها كل الأمور.

في اليوم الثاني من قدوم ملك المزورين، تم تحضير طاولة القمار ودعوه إلى اللعب، إلا أنه اعتذر قائلاً "لا رغبة لي بذلك هذا اليوم، أشكركم".

أين ذلك الملك الذي كان يوصي على طعام غدائه من الخارج ويرسل ملابسه للتنظيف والكي إلى خارج السجن، لقد ولت تلك الأيام فهو الآن يحضر طعامه ويغسل جواربه بنفسه.

في اليوم الثالث من قدومه طلب من رئيس الحرس نقله من قاووش البكوات إلى أي قاووش آخر. أبى رئيس الحراس تنفيذ طلبه، وهو الذي كان يتلقى منه الهدايا القيمة منذ سنوات طويلة، كيف يمكنه نقل ملك المزورين إلى قاووش المنحطين؟!!.. ومع ذلك رفع طلب ملك المزورين إلى مدير السجن.

مدير السجن هذا كان يعرف المزورين جيداً، لأنه كان يمتلك تجربة وخبرة واسعة، وقريباً سيحال إلى التقاعد. لذلك اهتم كثيراً بوضع هذا الشخص المعروف والظروف التي أوصلته إلى هذه الحالة.

ذات مساء وبعد انتهاء العمل دعا مدير السجن ملك المزورين إلى غرفته.

في السابق كان ملك المزورين يدخل إلى غرفة المدير كملك حقيقي، بوجه باش وهيئة ملك، أما في هذه المرة فقد دخل عليه كمذنب يخجل من فعلته:

- نعم يا سيدي قالوا إنكم طلبتموني. وظل واقفاً في مكانه.

رد عليه مدير السجن مشيراً:

- تفضل اجلس.

شكره ملك المزورين وجلس في المكان المشار إليه. قدم له المدير سيجارة، وبعدما طلب من الحاجب إحضار كأسين من الشاي سأل ملك المزورين بلغةٍ لطيفةٍ محاولاً عدم جرح مشاعره وإهانة كرامته.

راح ملك المزورين ينفّس عن همومه أمام شخص يعرف "البير وغطاه":

- يا سيادة المدير، على الإنسان أن يعشق عمله مهما كان هذا العمل جيداً أو سيئاً، وكما تعرفون والعالم كله يعرف أنني مزور. وهناك أنواع شتى من المزورين، مهنتي طباعة العملات المزورة. أي شيء تريد طباعته، إن رغبت دولارات أو إسترليني أو روبل، أطبعه لك بطريقة لا تسمح لأحد بالتفريق بين المزور والحقيقي، ولو أخذتها إلى كبار المتخصصين في كشف العملات المزورة لفشلوا في ذلك، ولقالوا: إن العملة الحقيقية مزورة، وما قمت به حقيقي. أنا أقوم بتزوير العملات الورقية والمعدنية. أرجو ألا يفهم ذلك من باب التباهي، لا يوجد أفضل مني في هذا البلد بل في كل العالم... شاهدت الكثير من أعمال المزورين الآخرين، ولا شيء منها يرقى إلى مستوى أعمالي.

- ليست سهلة يا سيادة المدير، فأنا أكمل حتى نيسان القادم خمسين عاماً في هذه المهنة ولا أمتهن غيرها، لماذا؟.. لأنني لم أحاول أن أقوم بغيرها ...

- مهنتي نظيفة، فالإنسان حسب وجهة نظري يجب أن يجيد عمله تماماً، وإلا فإن نتائج عمله ستكون أي شيء، ماذا أريد من هذا

القول؟.. سياسيينا؟.. لكن إياكم أن تظنوا أنني أشتغل في السياسة يا سيادة المدير.. معاذ الله.. أنا لا أحب السياسة بتاتاً، ولا أعرفها، ولا أشتغل بها، لأنني لا أعرفها. حسناً أليست السياسة من أجل قيادة البلد وسكانه بصورة جيدة؟. يعني هل السياسة أسهل من التزوير؟. انتهيت، لقد انتهيت تماماً يا سيدي. تخيل بلداً لا يمكنك القيام فيه حتى بالتزوير، هذا يعني أن كل شيء قد انتهى في ذلك البلد، كل شيء قد انتهى، كيف تقوم بالتزوير يا سيادة المدير، وهم لم يتركوا لك التزوير لتقوم به حتى.. عندما يكون أساس العمل مزوراً، إذاً فكيف ستقوم بالتزوير؟.. إذاً لِمَ حتى التزوير لا يمكّنوننا من القيام به؟. لأن الشيء الذي سنزوره هو بالأساس مزور. هل يمكن تزوير المزور؟. عندما تقوم بتزوير المزور ستصاب بما أصابني، يعني بالإفلاس.. لست الوحيد في هذا المضمار.. قريباً ستشاهدون أن نهايتنا جميعاً هي الإفلاس. لماذا؟.. لأن التزوير من أهم المقاييس التي تبين حالة البلد الاقتصادية. فقوة العملة تقاس بطبعاتها المزورة. لكن عندما لا تستطيع القيام بطبعة مزورة عن العملة... فهذا يعني أن القانون هو الضابط الوحيد الذي يحافظ على قيمة العملة. وهذا ما يسكتني لأنني أحترم القانون يا سيادة المدير...

توقف قليلاً وأشعل سيجارة أخرى وتابع:

-لا أدري هل استطعت توضيح السبب الذي أوصلني إلى هذه الحالة؟.

راح مدير السجن يحدق وكأنه يُمحِّص في بعض الأشياء، ومع ذلك لم يستطع معرفة السبب الذي أوصل ملك المزورين إلى هذا الوضع المزري:

- تابع.. تابع

تابع ملك المزورين ما بدأ به:

- شكراً لله حرفتي مطلوبة في كل أصقاع الأرض، ويدي ذهبية، لعل هذا هو السبب في عدم حاجتي لتعلم مهنة أخرى. قبل عامين أو ثلاثة أعوام كنت أعيش مثل البكوات والباشاوات، وأي باشاوات؟!! لم لا أقول مثل الملوك؟.. لذلك ليس من العبث أنهم وصفوني بملك المزورين.. حتى أنتم تعرفون ذلك... نعم كنت ملك حرفتي أليس كذلك؟. حتى سلبوا مهنتي مني، (تشرشحت) مهنتي لأنها أصبحت في أيدٍ غريبة.

مهنتنا يا سيادة المدير، أقصد التزوير مهنة لها طابع خاص في المزاحمة، ونحن منافسون خاصون، مثلنا مثل كل المنافسين نواجه الدولة، هذا يعني أننا والدولة في حالة منافسة دائمة، يعني، لأوضح لك الأمر، الدولة لديها مصنع النقود، تطبع فيه النقود، وأنا كمنتج خاص لدي مشغل صغير، أطبع فيه النقود. وكالعادة أنا أكسب المال، بينما الدولة تخسر على الرغم من امتلاكها للمصنع. لِمَ أنا أربح في مشغلي الصغير والدولة تخسر في مصنعها الكبير؟. لأن الدولة تقوم في السنة الأولى بتكليف عشرة أشخاص لإنتاج شيء ما، وفي السنة الثانية تكلف مئة شخص، وفي السنة الثالثة ألف شخص لعمل يقوم به شخص واحد، عدا عن ذلك فالعمل الممكن إنجازه في يوم واحد تنجزه الدولة في السنة الأولى في عشرة أيام، وفي السنة الثانية في عشرة أشهر، وفي السنة الثالثة تنجز عمل اليوم الواحد في عشر سنوات، كذلك إذا كانت كلفة إنتاج حاجة ما ثلاث ليرات

تجدها تنتجها في السنة الأولى بثلاثمئة ليرة وفي السنة الثانية بثلاثة آلاف ليرة وبعدها بثلاثمئة ألف ليرة، لتصل فيما بعد إلى ثلاثة ملايين ليرة للقطعة الواحدة، عدا عن ذلك فإذا كان إنتاج أي شيء يحتاج إلى مكان مساحته أربعة أمتار مربعة، ففي العام التالي يحتاج إلى أربعمئة متر، وفي العام الذي يليه يحتاج إلى أربعة أضعاف ذلك.

فلِمَ تقوم الدولة بذلك؟ ... لوجود البيروقراطية حتماً.. عندما تقول البيروقراطية تعني الحكومة.. لذلك أينما وجدت حكومة وجدت البيروقراطية.. عندما تقول حكومة، يعني رئيس حكومة ووزراء، وهؤلاء لهم أحزابهم، ولكل واحد منهم أتباعه وهؤلاء لهم شواغرهم وهكذا.. بعد ذلك وعندما تتغير الحكومة ذات يوم.. لتتشكل حكومة جديدة.. رئيس حكومة ووزراء جدد.. يعني عليك تعيين أتباع الأحزاب التي تنتمي إليها الحكومة.. وفي الوقت نفسه لا يمكنك تسريح جلاوزة الحكومة السابقة فالقوانين لا تسمح بذلك. ومن ناحية ثانية لا يمكنك رفض مؤيدي الحكومة الجديدة لأنهم مدعومون من الحكومة ذاتها، وهكذا يتولد لديك مفهوم الحكوماتية والحكوماتيين. وهذا المفهوم في النهاية يؤدي إلى أن تخرب الحكومة بيتها بيدها. مهما كانت...حتى لو أن الدولة أفلست فلا أحد يدري بذلك، ولم يسمع ذات يوم عن دولة أعلنت إفلاسها. لأنه لا توجد محكمة دولية للقيام بتلك الإجراءات. لذلك وعبر التاريخ لا تجد دولة أفلست، و حتى لو أفلست فلا أحد يعرف بذلك. حتى أن بعض الدول لا تعرف عن إفلاسها. لكن ألا يوجد مخرج لذلك؟.. نعم يوجد.. لكل شيء تجد مخرجاً، ويكفيك أن تجد هذا المخرج. ومن السهولة بمكان أن تجد المخرج المناسب. لنقل إن مطبعة الدولة ستقوم

بطباعة ذات الخمسة آلاف.. كم تكون قيمة هذه الورقة النقدية عند الدولة.. لنقل مئة ليرة.. هذا يعني أن الدولة تعطيك المئة ليرة بخمسة الآف.. بينما أنا كمنتج خاص كم تكلفني طباعة هذه الورقة النقدية؟. عشر ليرات.. البضاعة هي ذات البضاعة. حتى أنني أضمن في العشر ليرات نفقات كثيرة، كالأجور والمساعدات التي أقدمها لبعضهم، ونفقات المراقبة والرشاوى للقيام بذلك. لذا ما العمل؟.

يجب تحويل هذه المصانع إلى استثمارات خاصة، لكن عندما أقول استثمارات خاصة لا أقصد أي مستثمر خاص.. بل أقصد مستثمراً ذا خبرة غنية وسمعة نظيفة..

تدخل مدير السجن مقاطعاً:

- بعني على سبيل المثال لو أنهم سلموك...

و انفجر ضاحكاً، وبعد أن تمالك نفسه قال:

- و ما علاقة ما قلت في إيصالك إلى ما أنت فيه الآن؟.

- علاقة وثيقة، ومن الأفضل أن أشرح لك ذلك من خلال مثال واقعي. لنقل: قبل ثلاث سنوات ما هي نفقات طباعة ألف ورقة من ذات الألف؟.

لطباعة العملة تحتاج إلى ورق خاص، دهان، أحبار، فلم، كليشيه، آلات، وعمل.. ومن خلال خبرتي في التزوير خلال خمسين سنة، في السابق كانت تكلفة طباعة ألف ليرة بحدود عشر ليرات. بعد ذلك أخذت النفقات تزداد، عشرون ليرة، ثم مئة، وفيما بعد ذلك وصلت التكلفة إلى مئتي ليرة. ومع ذلك ألف شكر لك يا رب مازلنا في مرحلة الربح، لذلك كنت قد علقت لوحة في غرفة الشغل خلف طاولتي تحمل عبارة "الكسّاب حبيب الله". لكن بعدها أخذت

النفقـات تـزداد إلـى درجـة عـدم الاحتمـال، ازدادت أسـعار جميـع المستلزمات، وهـكـذا وصلنا إلى فترة أضحت فيها طباعـة الألـف ليـرة التي كانت تكلف عشر ليرات وتريح تسعمئة وتسـعين ليـرة، تكلـف تسعمئة وتسـعين ليـرة لـنربح عشـر لـيرات فقـط، هـذا يعنـي أن الأمـور باتت معكوسة، على كل حال مهما كان الربـح ضئيـلاً، فـهذا يعنـي أننـا في مرحلـة الربـح لذلـك اقتنعنـا بـهذا القـدر، يعنـي صرنـا نفكـر بالربح المركب. سابقاً كنا نطبع مئة ورقة ذات الألف والآن بتنا نطبـع ألف ورقة. لسنا الوحيدين في ذلك، بل مطبعة الدولة أيضاً أخذت تحذو حذونا، وهـكذا، كلما ازدادت النفقات رحنا نطبع أكـثر.. ومـن هنـا ازدادت الأوراق النقديـة في الأسـواق التـي بـاتت كالذبـاب الأسـود في تكاثرهـا. وازدادت الأسعار يا سيادة المدير إلى درجة أن طباعـة الألـف ليرة، باتت تكلف ألفاً ومئتي ليرة. وهـكذا صرنا نخسر في كل ألف ليرة مئتي ليرة.. وهذا ما لا تستطيع الاستثمارات الخاصة تحمله، فقط الدولة "ليحمها اللـه" تستطيع تحمله، ولـو أننـا طبعنـا ذات الخمسـين أو المئة، لأفلسنا تمامـاً لا محـال. وأخيراً وبمـا أن الدولـة لـم تعـد تسـتطيع تحمـل الخسـارة، لذلـك قـامت بتصغيـر حجـم العملـة كـي تخفـف مـن نفقـات الطباعـة. فـأصبحت ذات الخمسـمئة لـيرة بحجـم الطـابع، ومـع ذلك كنا نخسر، فأوقفنا طباعة ذات الألف ورحنا نطبع ذات الخمسة آلاف، لكـن طباعـة الخمسـة آلاف لـها خطورتـها الفائقـة بالمقارنـة مـن طباعة ذات الألف، وإمكانية اكتشافها أكبر. لكن لا سبيل أمامنا غير ذلك. وهـكذا ومنذ تسعة أشهر أقوم بتزوير ذات الخمسة آلاف.

سأله المدير:

ماذا تريد بعد؟، طالما أنك تكسب من ذلك.

- طالما أنني في مرحلة الربح، فلِمَ وجودي هنا إذاً يا سيادة المدير؟ عندما بدأت بالتزوير قبل خمسين عاماً كنت أطبع ذات العشر ليرات، وبعد ذلك خمسين ليرة، ومن ثم المئة ليرة، لنطبع فيما بعد خمسمئة ليرة، ومن ثم ألف ليرة. على زمان معلمي رحمه الله كانوا يربحون ليس في طباعة الليرة بل في صك الخمسين قرشاً. أما الآن فإننا نطبع ذات العشرة آلاف ومع ذلك فنحن في خسارة، بالمختصر أشتري المواد الأولية بمئة ألف ليرة، وإذ بي أطبع بهذه المواد ثماني ورقات ذات العشرة آلاف هذا يعني أنني في خسارة عشرين ألف ليرة. في هذه المرة أقوم بشراء المستلزمات بثمانين ألف ليرة، وبينما أقوم بطباعة ذوات العشرة آلاف ليرة خلال ثلاثة أيام، إذاً بالأسعار قد ارتفعت خمسين بالمئة.. وهكذا تشتري مواد أولية بثمانين ألفاً، لتطبع أربع ورقات ذات العشرة آلاف. فأنا راضٍ فيما لو كنت أستطيع تحصيل رأسمال الشغل. فهذه مهنتي التي عملت بها منذ سنوات. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نحصل على ذلك، فكما قلت لك أنا أحب مهنتي ولا أستطيع التخلي عنها.. كيف لي أن أتخلى عن مهنة أعيش منها منذ خمسين عاماً؟ ولا أجيد غير مهنة التزوير كي أعمل بها يا سيادة المدير؟ بالمختصر المفيد أقوم بطباعة عشر ورقات ذات العشرة آلاف ليرة، وبينما أدفع بها إلى الأسواق تكون الأسعار قد ارتفعت ثانيةً أربعين بالمئة، خمسين بالمئة، هذا يعني أننا في خسارة دائمة. وكما تعرف فإن طباعة العملة ليست تصويراً فوتوكوبياً كي تقوم بها بسرعة، فالعملية تتطلب يومين، ثلاثة أيام، فالمئة ألف ليرة المزورة خلال هذه الفترة تصبح خمسين ألف ليرة، هذا يعني أن لحاق العملة المزورة بالعملة الحقيقية مستحيل، علماً أن عملتنا المزورة أكبر قدرة

من العملة الحقيقية... وهكذا وصلنا إلى مرحلة خسرنا فيها كل شيء وأنفقنا ما تحتنا وما فوقنا. لكن ما العمل، فالشغل شغل؟ كم هو رائع أنني ادخرت ذات يوم واشتريت بعض الأشياء لذلك رحت أبيعها كي أستمر في العمل، خاصة أن الربح شريك الخسارة. بعت بعض الشقق التي كنت أملكها وبعض المحلات، حتى السيارة بعتها، كل ذلك من أجل الاستمرار في العمل، وأخيراً بقيت أنا وآلة الطباعة. منافسة الدولة مستحيلة يا سيادة المدير... آه لو أنني من وقتها غادرت إلى أي مكان من هذا العالم، إلى أمريكا أو بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا يوم كانت الإمكانية متاحة في حينها. لكن ماذا بوسعي أن أفعل الآن، وقد مضى قطار العمر وأصبحت في السابعة والستين. وإلى أين أذهب كي أبدأ من الصفر في التزوير.. لم يعرفوا قيمتي في هذا البلد يا سيادة المدير... لم يبق في حوزتي سوى شقة صغيرة. لو بقيت في الخارج لصرفت ثمنها في التزوير، لأصفق فيما بعد بكلتا يدي للهواء. لذلك قلت لنفسي أستطيع العيش بأجرة هذا البيت الصغير في السجن لذلك قمت بما يجب لإدخالي إلى السجن، وهكذا ألقيت بنفسي في السجن، هكذا يا سيادة المدير لا يمكننا القيام بالتزوير في دولة يكون فيها التزوير خاسراً، لكن هذا يعني أنه لا يمكن القيام فيها بأي شيء. لا.. لا هناك شيء ما يمكن القيام به، لكن بعد هذا العمر لا يناسبني.

أشياء أمريكية في مزاد علني

أتى لزيارتي صباح أمس وقال:

- ألم تنهض من فراشك بعد.

-الطقس بارد، ولا توجد لدي مدفأة..

-اشرب شاياً ساخناً.

-قطعوا الغاز عني، لا سكر ولا شاي حتى.

- مفهوم، مفهوم... يبدو أنك لن تصبح رجلاً. أتريد أن أجعلك رجلاً غنياً في لحظة واحدة.

-رجاءً اذهب إلى شغلك، لقد وصلت الأمور إلى أرنبة أنفي...

-إني جاد في ما أقول، خلال عشرة أيام سأجعلك غنياً، ادعُ لي.

بعد الآن أستطيع الحديث إليكم بهدوء. اقتنعت بما قاله صديقي كمال، ذهبنا إلى بيت أبي، وبحجة ما أخرجنا أثاث البيت إلى الطريق، أحضر كمال سيارة شاحنة، حملنا جميع ما لدى أبي من أثاث وأشياء قديمة ونقلناها إلى بيتنا. حزن أبي كثيراً عندما عاد إلى البيت ووجده فارغاً، ووقع في حيرة ظناً منه أن أحدهم سرق محتويات البيت. ومن الفاعل يا ترى؟..

في اليوم الثاني نشرت الصحف الإعلان الذي سدد قيمته كمال:

"مزاد علني لبيع أشياء خبير أمريكي"

سيبدأ مزاد علني لبيع أشياء تخص الخبير الأمريكي العريف

السيد (أرنولد باي) النادرة النفيسة، وذلك في ٣١ تشرين الثاني من عام ١٩٥٤ الساعة العاشرة... في...

الفوضى التي دبت في بيتي ذلك اليوم لم أشاهد لها مثيلاً في المسرح أو السينما ولا في الحفلات الموسيقية، سيارات خاصة ملأت حارتنا، لم يعد يتسع بيتي لهذا العدد الهائل والحارة أيضاً كذلك، أية سيدات وأي رجال..!!

الفراء الذي كانت ترتديه إحدى السيدات كان أغلى من كل محتويات بيتي بما فيه أنا، لم أكن أتوقع ذلك.

قلت متأففاً:

- لقد فضحت.

- هيا انتظر لترى.

بدأ المزاد العلني. وكمال في الوسط يدير المزاد، راح يصرخ:

-كنبتان وستة قلاطق ممهورة باسم كوهلر.

و في الحقيقة لم نجلب من بيت أبي قلاطق بل أشياء مكسرة..

تابع كمال نداءه:

- سيداتي، سادتي، من يود غرفة جلوس ممهورة باسم كوهلر.. غرفة نفيسة للخبير الأمريكي العريف السيد (أرنولد باي)...خمسة عشر ألفاً.

ظننت أن القهقهة ستملأ المكان وإذا بصوت حاد يسمع من بعيد:

- خمسة عشر ألفاً وخمسمئة ليرة.

- ستة عشر ألفاً.

- سبعة عشر.

- عشرون.

رمقني كمال بنظرة جانبية.

- يا الله، يا سادة، هل من مزيد؟، عشرون ألف ليرة، أشياء خبير أمريكي، "على أونه، على دوي"، بعت بهذا المبلغ، ألف مبروك.

هكذا بيعت قلاطقنا القديمة بعشرين ألف ليرة، ولو عُرِضت على تاجر الأشياء المستعملة لما اشتراها بعشرين ليرة، تم شراؤها منذ أيام السلطان رشاد، رقعة فوق رقعة، ومسماراً بجانب مسمار، لا يمكن استعمالها بتاتاً.

رفع كمال صوته:

- غرفة طعام (السرجنت ارنولد) الفنية، هل هناك من مزيد على هذه الغرفة الأمريكية الفريدة؟ لنبدأ بتسعة آلاف..

-عشرة آلاف..

-عندي بأحد عشر ألف ليرة.

بدأ المزاد على طرابيزة قهوة صغيرة، إحدى قوائمها مكسورة وحصيرتين وكرسي من الخيزران وثلاثة كراسي خشبية وراح يتزايد الرقم ألفاً بعد ألف، دخلت سيدة أنيقة ومترفعة ومتبرجة تلتقط أنفاسها تسأل عن طقم الجلوس الذي بيع قبل قليل:

- قالوا إنه قد بيع.

- واه.. واه!! خسارة، من اشتراها؟.

-السيدة سانا.

-اشترتها كي تغيظني، لذلك سأشتري هذه الغرفة ولتنفجر.

و فجأة راح أحدهم يصرخ وكأنه يعلن عن خطر ما:

- بعشرين ألفاً!.

زادت عليه السيدة:

- عندي بواحد وعشرين ألف ليرة.

قال لها الرجل الذي كان بجانبها:

- لا يساوي هذا المبلغ يا زوجتي العزيزة.

-ماذا؟.. لا يساوي؟.. أمان! يا غالب لا يوجد لديك ذرة من الذوق.. هذه الأشياء التي استعملها خبير أمريكي... خمسة وعشرون:

-بخمسة وعشرين.

على ما يبدو أن قلب كمال قد لان لذلك حاول إيقاف المزاد وقال:

- بخمسة وعشرين سأبيييييع ... بعت..

و إلا كان سيتابع المزاد لبيع الطربيزة والكراسي المكسرة إلى مئة ألف ليرة.

- سيداتي وسادتي ضوء عمودي "أولتراماتيك"!... بألف!...

لم تكن هذه الأشياء من بين أغراضنا، لكن كمال قام بإضافة "سوكة" مصباح كهربائية على عكاز والدي، وباعها وكأنها "أولتراماتيك" بثلاثة آلاف ليرة.. أما السيدة التي اشترت هذه "الأولترامتيك" فقالت متفاخرة:

- إنها ستناسب الصالون في بيتنا.

الرذالة الحقيقية بدأت عندما عرض فرشنا، أدرت رأسي نحو الجدار عندما رأيت القطن المتسخ البارز من شقوق القماش، تصوروا أنه عرض الفرش المتسخة للبيع.

- سيداتي، سادتي!.. فرش المستر (أرنولد) معروضة للبيع... فرش هوليود الفاخرة، مع وسائد صغيرة... بألفين وخمسمئة ليرة..

-ثلاثة آلاف.

باعـها بخمسـة آلاف لـيرة. بعدمـا بـاع جميـع الأشـياء التـي أحضرناها من بيت أبي، بدأ بالأشياء المهملة والمكسرة التي كانت في بيتنا، ليست هذه الأشياء وحسب، بل باع ملابسنا أيضاً، لم يبق لدينا أي شيء، ومع ذلك لم يخل البيت، وفي لحظة ما اقترب مني كمال، وأمسكني من يدي ليسحبني إلى الحمام ويقول لي:

- هيا اخلع!..

- وماذا؟.

هيا اخلع بسرعة سأبيع ملابسك، والداخلي أيضاً. ستشتري الملابس الجديدة فيما بعد.

خلعت كل ما يسترني حتى أصبحت كما ولدتني أمي!!، وخرج كمال وأقفل علي باب الحمام.

كنت أسمع صوته:

سيداتي وسادتي المحترمين بنطال الخبير الأمريكي العريف (أرنولد) من القماش "لاستكوتن" مئة في المئة ركبتاه مزينتان بقطع من "الغرنيتور"... بخمسمائة..

- ستمائة.

- سبعمائة.

بعد ذلك أتى الدور على ملابسي الداخلية:

كيلوت العريف أرنولد... مستعمل لمرتين فقط. بخمسين ليرة.

سمعت صوتاً نسائياً:

- حقيقة لا يساوي هذا المبلغ، لكن لو استعمله خمس عشرة مرة لدفعت هذا المبلغ عن طيب خاطر.

- سيداتي وسادتي... مناديل المستر (أرنولد باي) الفاخرة... بثلاث ليرات.

-بخمس ليرات.

-بسبع.

- بعشر ليرات أبيع... بعت. انتهى المزاد أيها السيدات والسادة..

سمعت صوت ضجيج وحركة غير طبيعية، كل واحد يأخذ أغراضه لينقلها. وبعد صمت دام نصف ساعة،سمعت صوت كمال من خلف الباب:

- ربحنا مئة وسبعة وأربعين ألف ليرة.

- حياك الله يا كمال! _ صرخت بأعلى صوت - افتح الباب بسرعة، لقد تجمدت من البرد.

- انتظر قليلاً سأذهب لأشتري لك ملابس جديدة..

خرج كمال، بعد ساعة، وبعد ساعتين رحت ارتجف من البرد.

رحت أنط ويداي بين فخذي، غطى الظلام المدينة، ولم يعد كمال.

منذ أيام وأنا في الحمام سأتجمد من البرد، لو كسرت الباب وخرجت لألقي القبض علي متهماً بالجنون،و بذلك سأهان، ولو كان موقد الغاز مفتوحاً لانتحرت. هذه القصة أكتبها من الحمام، لكن عجباً، ماذا أصاب كمال؟ هل صدمه الباص أم الترامواي أم أصابه مكروه؟، الحقيقة أقول إنه صديق جيد.

المساعدة الصديقة

يُعدّ هذا الحادث حدثاً سياسياً عالمياً. إلا أنه لم يدخل التاريخ عامة ولا تاريخ السياسة العالمية. فمهما كانت الكتب التاريخية صادقة في كتابتها إلا أنها تغفل بعض الأحداث ولا تذكرها بتاتاً. وهذه واحدة من الحوادث التي لن تذكرها كتب التاريخ قط.

فكما هو معروف فإن دولاً عديدة حصلت على استقلالها، وهكذا راحت تتكون دول جديدة وبعضها تتشكل في أيامنا هذه، لذلك فالأطالس تشيخ بسرعة وتهرم لأن خارطة العالم السياسية في تبدل وتغير دائمين.

حتى أن مستوى مدرّسي مادة الجغرافيا في معرفة أسماء هذه الدول وأسماء عواصمها ليس بالمستوى المطلوب.

هناك دولة في أفريقيا، أفضل عدم ذكر اسمها، ولدت وخرجت من رحم أمها حديثاً. بداية قام هؤلاء الزنوج بتشكيل حكومة من أولئك الذين قادوا حرب الاستقلال والتحرر، وعقدت أول جلسة لرئاسة مجلس الوزراء، ولعل من أهم المسائل الواجب التوقف عندها أنه تم إحداث وزارة للاقتصاد.

تتسم هذه الدولة وشعبها بالفقر المدقع. لا تمتلك مصادر للمودوعات النقدية، وإضافة إلى ذلك هناك قوى خارجية تبحث عن كل السبل لإخضاع هذه الدولة الحديثة اقتصادياً.

كذلك تحدث في الجلسة المذكورة وزير الزراعة والصناعة عن

الحاجة النقدية من أجل تلبية المتطلبات المعيشية الضرورية.

بعد هذه النقاشات تم اتخاذ القرار بتكليف وزير المالية بإعداد موازنة الدولة الأولى بعد إيجاد المصادر النقدية.

و في الاجتماع الثاني لرئاسة مجلس وزراء هذه الدولة الأفريقية قدم وزير المالية المعلومات الكافية والوافرة عن المصادر المالية التي يمكن تأمينها من بوساطة القروض والمساعدات الخارجية من أية دول كبيرة يمكن طلب القروض والمساعدات منها.

و عبر وزير الخارجية عن استحالة الحصول على المساعدات والقروض من تلك الدول لأنها لا تمنح القروض والمساعدات حباً للشعوب، بل هي تقدم القروض لمساعدة الشعوب وخدمتها ظاهراً، لكن هدفها هو وضع النير على رقاب الشعوب واستغلالها، وأكد أن على الدول الفقيرة المستقلة حديثاً أن تنتبه لهذا الشرك الذي نصبته خصيصاً لإيقاع بها ليس غير.

سأل رئيس الوزراء وهو رئيس أكبر قبيلة في بلده قائلاً:

- إذاً ما هو الحل برأيكم؟.. وماذا تقترحون علينا؟..

و جاء الاقتراح على النحو التالي:

توجد في أفريقيا الجديدة دولة إسلامية كانت فقيرة في الماضي. بواديها واسعة مقفرة غير مستصلحة، فلم يكن بالإمكان تربية الحيوانات فيها.. ولم يكن فيها صناعة أيضاً. لذا كان شعبها يعيش في ظروف قاسية. وذات يوم اكتشف النفط في هذه البقعة المقفرة، بمخزونات كبيرة جداً. وهكذا دخلت هذه الدولة الفقيرة بفضل النفط إلى مصاف كبريات الدول الغنية.

لا توجد علاقات سياسية مع هذه الدولة المسلمة، ولم يرسل إليها السفراء بعد، إلا أن ما عُرِفَ عنها أنها تقدم المساعدات للدول حديثة الاستقلال.

سأل رئيس الوزراء مستفسراً:

- و هل كميات النفط فيها كبيرة؟

أجابه وزير الخارجية قائلاً:

- ليس الأمر كما هو معهود، إذ لم يكتشف النفط في تلك الدولة بالمعنى العام بل تفجرت عيونه... تعددت الأقاويل حول اكتشاف النفط، لكن حسب الجاسوسية التقنية يقال أنه ذات يوم كان زوجان أوربيان يتمشيان في الصحراء، ومثل أي زوجين راحا يتشاجران، غضبت الزوجة وضربت بكعب حذائها الرفيع على الأرض فغاص الكعب في الرمال لينطلق سائل أسود لزج، ظن الزوج أن هذا السائل هو بول زوجته الغضبى، فالتفت ليضرب الأرض بعكازه وعندما انغرز العكاز في الأرض انطلق السائل نفسه.

هكذا تم شرح كيفية اكتشاف النفط في تلك الدولة الإسلامية.

سأل رئيس الوزراء:

- و من يترأس هذه الدولة؟

قام وزير الخارجية بالشرح حسب المعلومات المتوفرة لديه، وأنهم كانوا لا يهتمون لتصرفاتهم المشينة، وأنهم - زعماء تلك الدولة - كانوا ينفقون المال بدون حساب لكثرته، لكنهم وهذا المهم، كانوا يساعدون الدول المستقلة حديثاً. اتخذ القرار لتشكيل مجموعة كبيرة لزيارة تلك الدولة لطلب المساعدة وإقامة العلاقات الدبلوماسية

معها، وهكذا تم تشكيل وفد من عشرين شخصاً برئاسة وزير الخارجية وعضوية وزير الاقتصاد ووزير المالية وبسبب عدم وجود علاقات دبلوماسية مع تلك الدولة لم يكن بالإمكان ترأس رئيس الوزراء لهذا الوفد.

عندما تم إعلامهم بموافقة رئيس تلك الدولة الإسلامية على استقبالهم راح كل واحد من أعضاء تلك المجموعة يحضّر الهدايا لرئيس تلك الدولة، هذه الهدايا كانت من أثمن الهدايا في أفريقيا، في السابق كانوا يصطادون الحيوانات المفترسة، لكن هذه الطرائد تشكل اليوم مجموعات فاخرة من الأقنعة الملونة التي تستخدم في المناسبات الخاصة، وثمة قلائد مصنعة من أسنان الحيوانات المفترسة، ومصنوعات يدوية من خشب الشمشير كالتماثيل الصغيرة، وبعض أنواع البخور الفاخر، وفراء النمور وما شابه ذلك...

اتجهت المجموعة إلى تلك الدولة بعدما حصلوا على دعوة رئيس الجمهورية، وعلى متن الطائرة راحوا يتحدثون عن مستوى الوفد الذي سيستقبلهم، وكانوا يرجحون أن الوفد سيكون بمستوى وفدهم كما تقتضي الأعراف الدبلوماسية.

إلا أنهم دهشوا عندما شاهدوا مجموعة مؤلفة من عشرين شخصاً بملابس خاصة تلتف حول أجسادهم كالعبي، ومن بينهم خمسة أشخاص من ذوي الرتب كانوا في انتظارهم، هؤلاء الأشخاص لا يمكن أن يكون بينهم وزير الخارجية ولا وزير المالية. ولا يمكن أن يكونوا إلا ألوية في الجيش. ملابسهم ليست عسكرية ولا هي مدنية، أحدهم يرتدي بزّة زرقاء غامقة على كتفيه بنط عسكرية ومن جوانبها تتدلى بعض الشرائط. وعلى سراويلهم شرائط حمراء بعرض

شبر، وعلى طواقيهم النجوم، أزرار ثيابهم لامعة براقة.

استغرب الضيوف الزنوج أن يستقبلوا وكأنهم وفدٌ عسكريٌ، هذا يشير إلى مدى اهتمامهم وتقديرهم. لكن ما أذهلهم هو أن يقوم خمسة جنرالات بحمل أمتعتهم. لا، لا يمكن أن يكون هذا التصرف من قبيل كرم الضيافة وحب الضيوف. هؤلاء الزنوج يرغبون في حمل أمتعتهم بينما تمانعهم ذلك مجموعة الجنرالات فكانت بينهم مشادة. والذي تبين فيما بعد أن هؤلاء الضباط من خدم الفندق الذي سينزلون فيه. وكان من الطبيعي أن يقوموا بنقل الحقائب إلى السيارة التي ستنقلهم إلى الفندق. لكنهم لم يتوصلوا إلى معرفتهم حتى تقطعت مماسك بعض الحقائب.

إذاً لم يأتِ لاستقبالهم في المطار إلا بعض البوابين وحراس الفندق. وفي اليوم الثاني من إقامتهم في الفندق قدم إليهم أحد المترجمين وسألهم عن طلباتهم، وكانت رغبة السادة لقاء السيد الرئيس. في هذه الفترة كان الرئيس منشغلاً جداً بالوفود القادمة لطلب المساعدات التي تنتظر دورها، وهم أيضا عندما سيأتي دورهم سيستقبلهم الرئيس. بعد انتظار دام أسبوعاً وخشية من أعضاء الوفد على ما سيحل بدولتهم الحديثة، أرسلوا بالهدايا إلى رئيس تلك الدولة أملاً بلقائه. استشاط الرئيس غضباً عندما رأى الهدايا المؤلفة من الأقنعة والقلائد المصنعة من أسنان الحيوانات، إلا أن مدير المراسم أعلمهم بشكر الرئيس لهم على هداياهم وأنه يبلغهم امتنانه، وأنهم سيكونون في حضرته في اليوم التالي.

في اليوم التالي وقبل مثولهم أمام الرئيس شرح لهم مدير المراسم الإجراءات التي يجب أن يتبعوها في حضرة الرئيس. كان الرئيس

سيلتقي بهم في خيمته، فبسبب التزامه بالعادات الوطنية وتمسكه بها كان يجري مراسيم لقاءاته في خيمته. خيمة، لكنها طبعاً ليست كالخيام المعروفة، خيمة فخمة وكبيرة، وحسب العادات الإسلامية كان لا بد أن يخلعوا أحذيتهم قبل الدخول وأن يجلسوا على الأرض متربعين متوزعين حول الرئيس على يمينه وشماله.

غضب بعض أعضاء الوفد من خلع الحذاء. أما كان من الأجدر أن يعلموا بموضوع خلع الحذاء قبل أن يخرجوا من الفندق كي يستبدلوا جواربهم، وهم الذين غادروا بلدهم منذ أسبوعين.

استعرضوا ثلة من حرس الشرف بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحن الاستقبال، ثم دخل أعضاء الوفد الزنجي الخيمة مرتدين ملابس رسمية ملفتة للنظر.

ألقوا التحية على الرئيس بحرارة عالية كما طلب منهم مدير المراسم وجلسوا متربعين على جانبي الرئيس، برغم أن هذا النوع من الجلوس كان أصعب عليهم من تمرين الوقوف المستقيم، ولاسيما أن بعضهم لم يكن قد جلس على هذا النحو طوال حياته.

قام الرئيس بداية بتقديم التهاني بقيام الدولة الجديدة ببعض الكلمات ثم سألهم عن طلباتهم.

تحدث وزير خارجية الدولة الزنجية الذي يترأس وفد دولته عن الصعوبات التي تواجههم وشرح مخططات القوى الخارجية الرامية إلى تقويض استقلال دولتهم، وإرغامها على الخضوع لنيرها. لذلك فهم لا يرغبون في الحصول على قروض أو ديون من تلك الدول الكبيرة، وأضاف أنهم كانوا يعلمون بأن لدى السيد الرئيس الرغبة في مساعدة الدول المستقلة حديثاً، وأنهم يتطلعون إلى هذه المساعدة للخروج من هذه الأزمة التي تواجههم.

و كما يقولون فإن في قلب كل جسور ينام أسد ، وشخص مثل السيد الرئيس، جسور الجُسُر في قلبه قفص من الأسود ليس فيه أسدٌ واحدٌ أو أسدان بل قطيعٌ من الأسود. ومن أراد أن يظهر نفسه في طليعة السادة المسلمين فلابد أن يحمل في قلبه أسداً فما بالك إذا ظهر النفطفي بلد هذا السيد؟.

سأل السيد الرئيس قائلاً:

- هل أنتم مسلمون؟.

أجابه رئيس الوفد الزنجي:

- لا..

- و من أي دين إذاً؟.

- لغات وأديان كثيرة جداً في بلادنا ، لذلك لا يمكن معرفة ذلك بصورة واقعية ، يعتقد أن هناك أكثر من أربعين ديناً ، ولما كان المبشرون بالدين المسيحي من أشراف المجتمع فقد ساد الدين المسيحي في القرن السابق.

أوضح السيد الرئيس بجمل مقتضبة وحاسمة أنه إذا وافقوا على اعتناق دين الحق - ويقصد الدين الإسلامي- ، فإن جميع طلباتهم ستلبى.

لم تتوفر المعلومات عن الدين الإسلامي الذي سمعوا عنه من بعيد لدى السادة الوزراء أعضاء الوفد ، فشعبهم كان يعتنق أكثر من أربعين ديناً ، ولم يُسمع أن أحدهم كان مسلماً ، تبادلوا النظرات فيما بينهم لأنهم لم يعرفوا أن يجيبوا الجواب الصحيح.

توجه رئيس الوفد إلى رئيس الجمهورية قائلاً:

- يا سيادة الرئيس بداية اسمحوا لنا بالتباحث فيما بيننا كي نصل إلى القرار اللازم.

- كما تشاؤون، فكروا وتباحثوا، وأنا بانتظار قراركم..

لإبلاغ السيد الرئيس بقرارهم لا بد من مثولهم أمام السيد الرئيس ثانية، وقد يحتاجون إلى مدة أسبوع من أجل ذلك، بينما هم في حاجة إلى مساعدة عاجلة. لذلك راحوا يتباحثون فيما بينهم بلغتهم الخاصة، وأن لا ضير في ذلك من أجل إنقاذ وطنهم وشعبهم. وما الضرر في ذلك أصلاً؟.

وهكذا أبلغوا السيد الرئيس موافقتهم على اعتناق دين الحق.

أجابهم السيد الرئيس قائلاً:

سنقوم هذه الليلة إذاً بمراسيم اعتناقكم الدين الإسلامي وستتم كل الإجراءات المتعلقة بذلك، وغداً صباحاً ستتطهرون، لأن كل رجل مسلم يجب أن يكون مطهراً.

عرف أعضاء الوفد ما معنى مراسيم اعتناق الإسلام، لكنهم لم يعرفوا معنى الختان، لأنهم لم يسمعوا بتاتاً بهذا الذي يسمى بالختان.

غادروا خيمة السيد الرئيس بعد التعبير عن شكرهم له. وفور عودتهم إلى الفندق سألوا مرافقهم ومترجمهم عن الختان.

سألهم المترجم مدهوشاً:

- ألا تعرفون؟؟!!!!.

لا لم يعرفوا. لذلك تناوب المرافق والمترجم على شرح ماهية الختان، وأنه عملية جراحية بسيطة يتم بها قص قطعة زائدة من (....) الذكري.

شده الزنوج المساكين لأنهم لم يستطيعوا إدراك أية صلة بين الدين وتلك القطعة الزائدة. حتى أن بعضاً منهم راح يضحك مستغرباً.

بدأ النقاش فيما بينهم، ولم يكن لدى بعضهم أي مانع من قص تلك القطعة الزائدة من أجل خلاص وطنه و شعبه، ورفض بعضهم ذلك. وعلى رأس الموافقين كان وزير الخارجية. وهكذا اشتدت المناقشات وحمى وطيسها، فتحدث وزير المالية الشاب قائلاً:

- ما ضركم لو قصت القطعة الزائدة، فأنتم كبار في السن ولا تهتمون بذلك، ولا يثير اهتمامكم قَصٌّ قطعة من شيء لا تستخدمونه، أما موقفي فمختلف تماماً لأنني محتاج إليه بصورة كاملة.

راح وزير الخارجية بحساسية زائدة يتبجح وهو يرغي ويزيد متفوهاً بكلمات غير مفهومة، مثله مثل الرجال الكبار في السن. بينما تدخل وزير الاقتصاد رجل الحسابات قائلاً:

- المسألة ليست مسألة من المحتاج ولمن، بل بما يقولونه، قطعة لكن ما هو حجم هذه القطعة؟، فهو غير معروف؟؟!!.

راح الجميع يفكرون في الموضوع، جميعهم كانوا سيتخلون عن تلك القطعة في سبيل وطنهم، لكن ما هو حجم هذه القطعة؟ هذا ما كانوا يجهلون.

عندما قال وزير الخارجية إنه مستعد للتخلي عنه كله فداءً لوطنه، همس عضو الوفد الزنجي طويل القامة في أذنه قائلاً:

- طبعاً يمكن التخلي عن الشيء الذي لا يمكن استخدامه...

سأل وزير الاقتصاد المترجم عن مقدار القطعة الصغيرة التي

ستقص. أجابه المترجم قائلاً:

- ليس مهماً، قطعة صغيرة.

- لكن القطعة الصغيرة التي تتحدثون عنها تتبدل قياساً إلى الكل فعلى سبيل المثال هل تتساوى قطعة الفيل الصغيرة مع قطعة القطة الصغيرة؟، إن قطعة الفيل الصغيرة تساوي كل القطة.

رد المترجم أن المطّهر هو الذي يحدد مقدار هذه القطعة الصغيرة.

لم يستطع عشرون زنجياً التفاهم حول نقطة الختان، بعضهم يقول: لتُقَصَّ تلك القطعة، وبعضهم يقول لا، من كان موافقاً على ذلك كان يقول: ما أهمية تلك القطعة أمام أرواحنا التي كنا سنبذلها رخيصة من أجل الوطن؟، أما القسم الآخر فقد وضع مبررات عدة، ومن هذه المبررات على سبيل المثال ما استند إلى المساواة بين الرجل والمرأة، فقال بعضهم لمَ لا تتم هذه المساواة في الختان أيضاً؟!! إلا أن هذا المبرر لم يقنع أحداً. لذلك وجد صاحب المبرر نفسه مضطراً إلى القول:

- لا أستطيع اتخاذ مثل هذا القرار وحدي، لأني مضطر إلى مشاركة زوجتي حين اتخاذه.

بعد ذلك أردف هذا الزنجي المناصر لقضية المساواة بين الرجل والمرأة قائلاً:

- يمكنني غض النظر عن زوجتي الأولى... أما الثانية فهي كبيرة في السن... ولست ملزماً بسؤال الثالثة... أما الرابعة فيجب أن تشاركني في اتخاذ القرار، أما زوجتي الخامسة فهي شابة صبية.

قطع عليهم رئيس الوفد الطريق قائلاً:

- يا جماعة، لا تجعلوا من الحبة قبة، ومن هذا الموضوع قضية، فقرار مهم في قضية مهمة مثل قضية إنقاذ شعبنا وبلادنا لا يُتخذ بمزاج أحد ولا برغبته، سنقوم بذلك جميعاً، وكفى.

لم يعاند في ذلك من بين العشرين زنجياً إلا شخص واحد فقط، لذلك عمل الجميع على إقناعه بالعدول عن رأيه، وبأن هذه القضية مهمة جداً، وستُظهر مدى تفانيهم من أجل وطنهم، وبأن أسماء العشرين زنجياً ستدخل في التاريخ.

لم يجد نفسه مضطراً للتمسك بتعنته، ولاسيما أن أصدقاءه مصممون على ذلك، وأنهم يستطيعون إمساك يديه بسهولة، وإجراء عملية الختان مكرهاً، لذلك راح يدفعهم إلى المطالبة بالأجزاء المقطوعة للاستفادة منها في عمليات إعادة توصيل الأعضاء، فكما يمكن بعملية جراحية إعادة الإصبع إلى الكف، والكف إلى الرسغ، والرسغ إلى الساعد، والساعد إلى الكتف، كذلك يمكن إعادة ذلك الجزء إلى مكانه.

و برغم اقتناع البقية بهذا الطرح، ظهرت لديهم مسألة أخرى فماذا لو اختلطت الأجزاء بعضها ببعض؟ لذا فحتى لا يفقد أي منهم قطعته لا بد من ترقيمها ووضع الشارات عليها.

تنطّع أحد المتشددين منهم في الغيرة على وطنه قائلاً:

- ألم نفتدي وطننا حتى بأرواحنا في مرحلة حرب الاستقلال؟؟... ألم يسقط العديد من أصدقائنا شهداء في تلك المرحلة؟.. يومها لم نخف على رؤوسنا، وأنتم اليوم تفكرون في قطعة صغيرة..

- المعارك مسألة أخرى. كنا نصب جام غضبنا على أعدائنا... حتى أنهم كانوا يرغبون في امتصاص دمائنا... أما الآن فأنا لست غاضباً على من سيطهرني.. في الحرب أنت أمام عدو، إما أن تقتله أو يقتلك.. أما هنا فالمعادلة ليست كذلك، فأنا لست في صدد تطهير أحد، حتى يطهرني.

ظهرت مسائل تقنية أيضاً، فعلى سبيل المثال هل سيتم التخدير عند إجراء العملية.. أم سيتم بوساطة التخدير الموضعي؟.. كذلك لديهم رغبة بمعرفة كيف سيحدد المطهر طول تلك القطعة، بالنظر أم بوساطة اليد، لذلك لا بد من تحديد ذلك بدقة، حتى يحددوا درجة تفانيهم في خدمة وطنهم.

حسب إعلان المترجم فإن الأمور لن تنتهي عند ختان العشرين زنجياً، فعند عودتهم إلى وطنهم لا بد من دعوة الشعب إلى اعتناق الإسلام وثم إلى الختان.

صرخ أحدهم قائلاً:

- هذا غير منطقي _ ثم وضح ما هو غير المنطقي في الموضوع _ سامحوني، لكنه أكثر ما يفتخر به رجالنا، خاصة أنه لا يوجد لديهم غير ذلك ما يفتخرون به، والآن عندما سنطلب إليهم قص ذلك الجزء سينتفض شعبنا وبذلك سيدخل هذا الحدث التاريخ بوصفه تآلفاً عصيانياً، لذا فنحن لن نتحمل مثل هذه المسؤولية. ثقوا تماماً أني لا أفكر بذاتي، ولا سيما أنني مستعد لأي شكل من أشكال التضحية، وإذا كنتم ترغبون في ختاني من جذوري فليكن، لكن يجب أن تأخذوا بالحسبان أن شعبنا سيرفض ذلك.

عبر أحد الزنوج من أعضاء الوفد ممن تلقوا تعليمهم في أوروبا، والرافض للعودة إلى بلاده فارغ اليدين من المساعدة التي قدموا إلى هنا من أجلها، إن الشعب سيوافق على عملية الختان عن طريق التوعية، ثم أردف قائلاً:

- بزيادة الوعي واستخدام الأسلوب المناسب لن يوافق شعبنا على الختان وحسب، بل حتى على قطع قدمه.

يومها استمر نقاشهم حتى الساعات الأولى من الصباح، وفي الختام تم اتخاذ قرار الموافقة على الختان. نصبت خيمة ختان مزركشة كبيرة في ساحة واسعة، واعتبر هذا اليوم عيداً للختان، وتم إعلام جميع وكالات الأنباء والصحف العالمية بذلك. حضر الإذاعيون والتلفزيونيون والصحفيون إضافة إلى الدبلوماسيين المعتمدين في تلك الدولة لحضور مراسم الختان، حتى القناصل حضروا مراسم الختان، وجلسوا إلى مأدبة الطعام، وأكلوا حتى التخمة.

بالطبع من أجل دعاية عالمية لا بد من القيام بمثل تلك المراسم.

طقطق المطهرون المهرة أمواس الحلاقة والمشارط والمقصات، ولم يكن عملهم سهلاً، فهم ليسوا أطفالاً، بل كباراً في السن لذلك نزفوا كثيراً.

تمدد العشرون زنجياً على أسرة مزركشة بعد أن أجريت لهم عملية الطهور بعد حضورهم مراسم اعتناق الدين الإسلامي.

أما الزوار فقد اصطفوا لعيادتهم تاركين الهدايا على أسرتهم، ولعل هذه الهدايا كانت طلائع المساعدة الموعودة.

أحد المتمددين على الأسرة قال لجاره:

- لقد جرى ما جرى، لكن عندما كان المطهر يقوم بعمليته قام رجلان بإمساك فخذي، وفي هذه اللحظة بالذات راحت "الفلاشات" تلمع في وجهي، وهم يلتقطون الصور الفوتوغرافية، وعندما تُنشر هذه الصور في الصحف لن أتجرأ على النظر في وجه أحد.

أجابه جاره قائلاً:

- و كيف سأنظر إلى وجه زوجتي عندما أعود...

قال له صديقه:

-لا تفكر كيف ستنظر إلى وجه زوجتك لكن فكر كيف ستنظر هي إلى وجهك.

راح الزنوج المختونون المرتدون ثياباً خاصة بالختان يتنقلون مباعدين أفخاذهم بعضها عن بعض من شدة الألم لمدة أسبوع كامل، ولا أحد يحدثهم في موضوع المساعدات أو الديون، أو القروض، لذا وجدوا أنفسهم مضطرين إلى طلب لقاء السيد الرئيس مرة ثانية، فتفضل السيد الرئيس ودعاهم إلى خيمته للمثول أمام حضرته. جلس الزنوج متربعين متوزعين على جانبيه.

كان رئيس الوفد وزير الخارجية يتحدث عن المساعدات الموعودة عندما استشاط السيد الرئيس غضباً وقال:

- أية مساعدة ممكن أن نقدمها غير ما قدمناها، لقد انتزعناكم من طريق الضلال إلى طريق الحق وأدخلناكم الدين الإسلامي وأجرينا لكم الختان، فهل ثمة مساعدة أعظم من ذلك؟..

أدرك وزير الخارجية ضرورة التحدث بدبلوماسية ولطف، فراح

يشد على أسنانه البيضاء الناصعة قائلاً:

-لن ننسى هذه المساعدة ما حيينا، لكننا نفكر بمساعدة شعبنا التي نأملها منكم.

رد عليه السيد الرئيس قائلاً:

- لا تهتموا بتاتاً بهذا الموضوع، لا تظنوا أنني نسيت شعبكم، سنساعدهم أيضاً، لذلك عودوا الآن ونادوا شعبكم لدخول دين الحق، وأنا سأمد لكم يد المساعدة وسأرسل أربعين أو خمسين من خيرة مطهرينا.

عاد الوفد إلى بلاده وكل واحد منهم قد ترك قطعة من جسده هناك، وبصره معلق بها، حادثة غاية في الإدهاش لدرجة أنهم حقيقة راحوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام وإلى الختان لأنه إذا ما اعتنق الشعب الإسلام وتم ختان رجاله فلن يبقوا شاذين في مجتمعهم، وسيصبحون مثلهم مثل غيرهم ممن أقتطعت قطعة من جسده.

نعم دعوا لاعتناق الإسلام لكن عندما أجبروا الشعب على الختان انتفض عليهم... وهكذا لم تبق الأمور مقتصرةً على خسارتهم قطعة من أجسادهم، بل خسروا في هذه الانتفاضة العارمة رؤوسهم.

ملاحظة:

قرائي الأعزاء، بالتأكيد لم تصدقوا أحداث هذه القصة، لأنها ليست واقعية، غير أن القصة تتناول حادثة حقيقية مغايرةً تماماً، إذ يعيش في إحدى الدول أقلية تركية مسلمة لا يتجاوز عدد أفرادها المليون، وبحجة التقدمية طُلب منع إجراء عملية الختان. كان ذلك في العام ١٩٦٥، عندما سعى بعضهم وبحجة التقدمية جاهدين إلى تطبيق هذا المنع. وتقدم هذه المجموعة أحد الأتراك، وتحمس للملكية أكثر

من الملك نفسه، وجرى الأمر كما كان في سياق القصة، فالمسألة ليست رفض عملية الختان، بل العكس تماماً، فتلك الأقلية التركية كانت على وشك الانتفاضة لولا إلغاء هذا المنع، أما بعض الأتراك الذين حاولوا تطبيق ذلك فقد لفظهم مجتمعهم.

لكن ماذا جرى في الختام؟.. في النهاية كان بين الأتراك ممن حالوا دون ختانهم، فلم تدخل تلك الحادثة صفحات التاريخ.

أما العبرة التي يجب استخلاصها فهي أن على رجال الدولة، إن كان في أفريقيا أو في أسيا أو في أوروبا، ألا يدسوا أنوفهم بين فخذي الشعب.

لا تخف...

دخل رجل في الأربعين من العمر منحشراً بين دفتي بوابةٍ حديدية كبيرة، كان أسمر، وهزيلاً جداً حتى بدا أنفه قياساً إلى وجهه ضخماً، وكان يرتدي نظارتين طبيتين. وكان الخفير يقف أمام دفتي الباب العالي ينظر إلى الأعلى متجاهلاً وجود أي مخلوق هناك.

فاقترب منه الرجل بخطوات متثاقلة، ثم أخرج من جيب سترته محفظته ومنها ورقة مطوية أربع طيات. فتح الورقة الرسمية المختومة بخاتم دائري بتأن وحرص، ثم مدها إلى الخفير الواقف أمام الباب غير مبال بأحد. واسترسل الخفير تحديقه بعيداً. فرفع الرجل رأسه عالياً، ثم راح يسعل دون أن يفتح فمه كي يشعره بوجوده. فما عَبَأ به الخفير.

كم كان الباب عالياً، وثقيلاً لأنه مصنوع من حديد الصب، كان الخفير الذي يتجاهل وجوده يقف على عتبة الباب وكأن مكبساً يضغط على رأسه، فمد الرجل يده منحنياً باحترام حتى كاد يلمس الأرض:

- تسلمت هذا التبليغ، كي أحضر اليوم.

لم يكترث الخفير لما سمع بل تابع تحديقه، وكأنه يقتفي أثر طيرٍ أو ذبابةٍ تطير حول أنفه، ثم أخذ ينظر بعيداً، لعل ذلك الرجل تحدث بصوت منخفض فلم يسمعه الخفير، لذلك كرر قائلاً:

- طلبوني اليوم إلى هنا ... وهاهو ذا التبليغ.

لا جواب لدى الخفير، وبعد دقيقتين قال له دون أن يحيد بنظراته:

- قف جانباً وانتظر.

- حسناً.

و في أثناء ذلك دخل الخفير وخرج عدة مرات، وكلما عاد إلى مكانه ارتسمت على وجهه ذات التعابير، والقسمات ذاتها. بعد انتظار دام نصف ساعة قال له الرجل:

- طلبوا حضوري في هذه الساعة بالذات..

رد عليه الخفير بصوت جهوري:

- قلت لك قف جانباً وانتظر.

- حسناً.

لأول مرة في حياته يدخل إلى مثل هذا المكان، بابه حديدي كبير وثقيل وعلى عتبته يقف خفير لا ينظر إلى وجه أحد، لأول مرة في حياته يعيش مثل هذه اللحظة لذا كان متوتراً من الخوف.

امتد طابور المنتظرين من نساء ورجال، سمع صوتاً مزمجراً:

- ادخل.

سمح له الخفير بالدخول دون أن يحيد بنظراته عن اتجاهها، وتأهب الرجل للدخول لكن من أين؟. فقد كان الخفير منتصباً بكامل قامته بين دفتي البوابة، لذلك لم يتيقن بإمكانية دخوله، إذ أنه لن يستطيع الدخول من بين ساقي الخفير، فكان لا بد من دفع الباب الحديدي.

صاح عليه الخفير:

- ليس من هناك.

بحث الرجل عن إمكانية أخرى، وعندما أظهر عجزه أمره الخفير:

- ادفع الدفة الثانية.

كم كان الباب ثقيلاً وعالياً، فبجهد بالغ استطاع فتح دفة الباب بقدر شبرين لينحشر ويدخل عبرها بصعوبة.

أدخله خفير آخر في "كُلبةٍ" خشبية، على بابها ستارة قماشية، راح الخفير يفتشه من أعلى رأسه وحتى أخمص قدمه. وفي أثناء عملية التفتيش راح الرجل يتدغدغ، إلا أنه ضغط على أسنانه لكي لا يضحك. ثم خرج الرجل من باب تلك "الكُلبة" ممسكاً بالورقة ليسأل خفيراً آخر ماذا سيفعل وإلى أين سيتجه، رفع الخفير رأسه مشيراً إلى الوجهة التي يجب أن يسلكها.. بعد ذلك دنا الرجل من الطاولة المقصودة.

طلب منه الخفير الجالس خلف تلك الطاولة هويته دون أن يتفوه مبرزاً رزمة من الهويات، فناوله الرجل هويته ليدون الخفير محتوياتها في دفتر خاص. بعد هذا الإجراء أعطاه الخفير بطاقة خاصة تعلق بخيط على الرقبة، وبإشارة منه طلب تعليقها، نفذ الرجل ما طُلِب منه، ثم سأله مستفسراً عما سيفعله. أشار الخفير بأنفه إلى المكان الذي سيتجه نحوه.

ظن الرجل أن الجميع هنا لا يتكلمون أو أنهم يتقاعسون عن الكلام... إن هؤلاء الذين لا يتفوهون بكلمة لأي سبب من الأسباب، بل يشيرون برؤوسهم وأعينهم وأنوفهم وأفواههم جعلوه يشعر أنه دونهم مستوى وأنه منحط وحقير، كما وأن هذا الإحساس خلق في أعماقه

شعوراً بالخوف والفزع.

اتجه صوب ما أشير له، وهناك وجد خفيراً آخر يقف خلف باب على شكل قضبان حديدية. أمسكه هذا الخفير من زنده بإحكام ثم سارا سوية، كان يمسكه بإحكام وكأنه سيهرب أو أنه سيطير من بين يديه.

شعر الرجل بحاجته إلى التبول، ما هذا الحظ؟، يبدو أن الشعور بالفزع منذ لحظة الدخول هو السبب.

كانا يسيران في دهليز طويل جدرانه مزينة بكلمات مزخرفة.

طلب من ذلك الخفير المطبق عليه والخجل يعتريه:

- اعذرني، هل أستطيع الذهاب إلى المرحاض؟.

لم يتفوه هذا الخفير مثل غيره بكلمة.

ازدادت حاجة الرجل إلى التبول، كيف سيتحدث مع من استدعوه وكيف سيجيب على أسئلتهم وهو في هذه الحالة؟.

سأله ثانية:

- أين المرحاض؟.

صرخ به الخفير:

- نسق خطواتك!.

عدل الرجل خطواته حتى أصبح يمشي مع الخفير على ذات وقع الخطوات التي كانت تُسمَع من بعيد.

احتقن الرجل أكثر حتى دبت الفوضى في وقع خطواته ثانية برغم من كل محاولاته إعادة تناسقها.

صرخ به الخفير ثانية:

- نسق خطواتك!.

حاول الرجل أن يتكلم وهو يقوم بتنسيق خطواته:

- أين المرحاض ... ال..مر ...حاض.

راح الخفير يدق بقدمه على الأرض لإسكاته كلما طلب منه الرجل السماح له بالذهاب إلى المرحاض.

ثم وقف الخفير عند زاوية الدهليز فما كان أمام هذا الرجل إلا الوقوف والالتصاق به. بعد ذلك أشار الخفير بعينه ووجنته وأنفه إلى الوجهة التي يجب أن يتجه إليها، ثم تركه وانقلب راجعاً.

و قف الرجل وحيداً لفترة من الزمن وهو يُنصِت لوقع أقدام الخفير المبتعد.

ظن الرجل أن الخفير أشار له بعينه وحنكه وأنفه حيث المرحاض، فركض في الدهليز الطويل ولكنه لم يجد فيه باباً واحداً. توزعت المصابيح الكهربية على سقف الدهليز المذكور واحدة كل خمسة إلى ستة أمتار، وبرغم ذلك كانت إنارة الدهليز خافتة. لأن تلك المصابيح كانت ضعيفة الاستطاعة من ناحية ومن ناحية أخرى كان بعضها لا يعمل، وتحت كل مصباح تدلت سلسلة، وعندما تتابع النظر نحو أسفل السلسة تجد لوحة تحمل عبارة "لا تخف" أو "إياك والخوف".

راح يحاكي نفسه "حقيقة لم الخوف وما الداعي إليه". دخلت السكينة قلبه فهدأت من روعه، وبذلك تراجعت رغبته الشديدة في التبول، وفكر بينه وبين ذاته ووصل إلى نتيجة فحواها أن كل شيء مرتبط بالسيكولوجيا حتى رغبة الإنسان في التبّول.

تابع مسيره وهو يقرأ اللوحات..

"تحدث دون خوف أو حرج".. "اطمئن أيها المواطن، أنت في مأمن"

"لا تخف".. "لا تخف".

كلما قرأ هذه اللوحات اطمأن أكثر. حتى أنه - بسبب وجوده وحيداً في الدهليز الطويل - نسي حاجته إلى التبول، بل تغلغلت السعادة في قلبه وبدأ يشعر بالفرح. ولكونه وحيداً ولا أحد يراه لذلك راح يغني ويرقص مطقطقاً أصابعه.. وفجأة شاهد لوحة كتب عليها "لا تخف".."الحياة بلا خوف حق مشروع من حقوق الإنسان.. "انزع الخوف من قلبك".. "لا تخف"..

و برغم بشاعة صوته راح يؤلف أغاني ليغنيها مثل "لا تخف.. لا تخف.. لا تخف.

كان يرددها كأغنية تارةً وكنشيد تارة أخرى، بعد ذلك استجمع قواه، ثم راح صوته يهدر بكل ذلك كمن يغني كي يبعد الخوف عن قلبه عندما يمر من جانب مقبرة ليلاً..

ثم راح يمط أغنيته:

"لا تخف ...لا تخف.. لا تخف.. أوف أوف.. لا تخف يا روحي ... لا تخف يا عيني.. أوف أوف لا تخف".

اتجه يمنة ثم سار فترة من الزمن، وبعد ذلك اتجه يسرة، كم هو مثير للاستغراب، إذ إنه سار طويلاً ولم يصادف في طريقه باباً واحداً. وكم من الوقت سيسير وإلى أين سيذهب؟.. أخرج الورقة الرسمية المختومة وفتحها تحت المصباح الخافت، ليقرأ مصدرها ثانية، وكأنها ستفيده في محنته. بعد ذلك أعادها ثانية إلى جيبه.

كأن هذا الدهليز يمتد تحت الأرض ويزداد عمقاً، فعندما دخل مع ذلك الخفير الذي أمسكه بعنف، نزلا في المدخل عدة درجات

تحت الطابق الأرضي، إلا أنهما لم ينزلا إلى هذا العمق تحت الأرض، وكأنه في قبو عمارة ضخمة مخصصة لتمرير أنابيب تدفئة البناء المركزية.

و في تلك اللحظة شعر بانحدار الدهليز، هذا يعني أنه كلما مشى انحدر تحت الأرض أكثر.

عندما شعر بالخوف ثانية أحس برغبة في التبّول، ولكي يدخل السكينة إلى نفسه راح فوراً يقرأ ما ألصق على الجدران واللوحات المعلقة بسلاسل على سقف الدهليز "لا تخف"... انزع الخوف من قلبك.. يعيش الجريء الذي لا يسمح للخوف بالتغلغل إلى قلبه!... لا تخف، لقد زالت حقاً رغبته في التبول.

وفجأة شق صراخ امرأة السكون السائد في الدهليز. فُهم أن صراخها وبكاءها وتوسلها المتواصل يبين مدى ما تعانيه، وأن روحها تحترق.

كانت تصرخ وتبكي وصراخها يتعالى وكأن قطعة معدنية محماة تكوي جسدها العاري لتنتزع قطعة من لحمها أو سيخاً حديدياً يدخل في صدرها.

تراخت ركبتا الرجل، وكاد يسقط على الأرض، ولولا استناده إلى الحائط، لتهالك ووقع، حاول سد أذنيه بيديه كي لا يسمع العويل، لكن عبثاً... كانت الصرخات تتعالى وتتضخم عبر الدهليز الطويل. شعر ثانية بالرغبة في التبول، حتى أنه كان على وشك التبول في سراويله لعدم قدرته على التحكم بنفسه. احتقن ثم راح يتلوى، وبما أنه ليس في الدهليز الطويل مرحاض ولا حتى باب واحد كي يستريح، لذلك فكر بالتبّول على الحائط، إلا أنه لم

يستطع القيام بذلك خشية أن يراه أحد - أي شخص - وهو يبول في دهليز مركز رسمي برغم أن الدهليز كان خالياً من أي شخص.

وفجأة ابتلعت عتمة الدهليز صراخ تلك المرأة مثلما ظهر فجأة. لينشق الدهليز ثانية إلى فرعين، ومهما كانت الأسباب فقد اختار السير عبر الفرع الأيمن. تعب كثيراً من مشيه لمسافة طويلة، حتى أخذت قطرات العرق تتسرب إلى أسفل ظهره، أخذ أمله بالخروج من بين تلك الجدران تحت الأرض يتلاشى ويتبخر، حتى بات يشعر أنه يقيناً في سجن.

بعدها راح يسمع أنين مجموعة أشخاص وصرخاتهم وتوسلاتهم وبكاءهم، بين فينة وأخرى كان يسمع صوتاً يشبه لسع سوط أو حزام على جسم عار. أخذ الرجل يرتجف خائفاً ثم انهار متكوماً في مكانه. كان في موقف يدفعه إلى التبول على نفسه. لم يعرف كم من الوقت مضى وهو على هذه الحالة. تلاشت أصوات الصرخات والأنين والبكاء. إن سماع تلك الأصوات البشرية يعني أنه ثمة أشخاص في مكان ما.

نهض من مكانه ثم راح يمشي بتثاقل، حاول أن يستعيد شجاعته بقراءة اللوحات المدلاة من سقف الدهليز.

"الإنسان المتحضّر لا يخاف"، "الخونة يخافون!"، "لا تخف".

لو لم تكن هذه العبارات موجودة ولو لم يقرأها، لاعتل قلبه لا محالة.

بدأت المياه ترشح من الجدران وتقطر من السقف وفي أرض الدهليز تجمع الماء المتسرب. فكر بالعودة إلى الخلف، لكنه خشي أن ينشق الدهليز إلى فرعين ثانية. راحت المياه المتسربة تتجمع ويرتفع

منسوبها رويداً رويداً، لذلك لم يكن أمامه إلا أن يرجع إلى الوراء، وفي لحظة التفاته تماماً انقطع التيار الكهربائي ليغوص في ظلام دامس مثل القطران. وبشكل لا إرادي أطلق صرخة خوف من العتمة، في تلك اللحظة ذاتها سمع صوتاً ناعماً هادئاً:

- لا تخف!، ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف.

و لهول المفاجأة بسماع صوت آدمي أطلق صرخة ثانية.

سْمع ذلك الصوت الهادئ ثانية وهو يتردد، وكأنه رجع الصدى يشق العتمة:

- لا تخف..لا تخف، فأنت في أمان هنا.

رغب الرجل في أن يشكره، إلا أنه لم يستطع ولم يصدر عنه سوى نبسات شفاه متحركة.

انتظر فترة عله يسمع ذلك الصوت ثانية، وعندما لم يسمعه حاول السير في العتمة متلمساً طريقه بكلتا يديه. بلغ منسوب الماء مستوى أعلى حذائه، ولم يستطع التخلص من الماء، ولكي يحدد مساره بدقة راح يبحث عن الجدار ملتمساً الاستناد إليه، شيء مرعب..!، حاول أن يسير في كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة أربعين وخمسين خطوة، ومع ذلك لم يستطع تلمس الحائط. هو الآن في مكان مظلم فسيح بلا جدران، وكأن جدران الدهليز اختفت فجأة.

خارت قواه، وخانته قدماه فانهار متكوماً في مكانه وسط الماء.

برر لنفسه بأن لا شيء هنا يخيفه إذ لاشيء سيميته، وتذكر فجأة علبة أعواد الثقاب في جيبه، فضوء أعواد الثقاب سينير له الدهليز وعندئذ سيستطيع تحديد اتجاهه. أخرج علبة الثقاب، وكان

معظم أعواد الثقاب قد أصابه البلل، وراح يقدح أعواد الثقاب، إحداها بشّره بشرارة فاشتعل ونشر ضوءه مبدداً العتمة، فمد يده إلى الأمام كي ينير طريقه. وإذا به يرى أمامه تماماً كفين كبيرين أكبر من كفي يديه بمرتين، فأراد أن يطلق صرخة، بل قل أطلقها إلا أنه لم يستطع أن يطلق من فمه سوى زفرة بسبب انعقاد لسانه. حاول الهرب إلا أن ساقيه خذلتاه، فرفع لهب عود الثقاب عالياً ليلمح أمامه شخصاً ضخماً يبتسم. انطفأ عود الثقاب. لم يتجرأ على إشعال عود ثقاب آخر، خشي كثيراً أن يصيبه هذيان الرعب، فهو الذي كان يبحث منذ ساعات عن آدمي، وإذ بهذا الإنسان يقابله وجهاً لوجه.

قد يكون ما رآه ليس إنساناً حقيقياً بل هلوسة فارغة، يعني أحلام اليقظة، لكن لو كان كذلك إذاً فلمَ كاد أن يبول تحته أو ربما بال قليلاً.. لا ! لا يمكن أن تكون أحلاماً أو مجرد هلوسات، بل هو إنسان حقيقي، لأنه تكلم بصوت ناعم كنعومة المخمل وقال:

- لا تخف ... لا تخف!

أجابه الرجل:

- بسبب العتمة.

- لمَ لا تضغط على زر الكهرباء وتشعل المصباح؟

- لأنني افتقدت الجدران ولا أجدها.

- الجدار خلفك تماماً.

عندما مد الرجل يده إلى الخلف لمس الجدار مباشرة، وضغط مفتاح الكهرباء الذي وجده فسطع النور في الدهليز، وكانت جدران الدهليز لا تزال في مكانها.

و هكذا استطاع أن يرى ذلك الرجل، وبفضل ابتسامته تمكن

من لملمة شتات البقية الباقية من جرأته ليسأله من هو، فأجابه بأنه خفير هنا وأن مهمته هي إبعاد الخوف عن قلوب المواطنين، ثم أشار إلى لوحة معلقة وقال له:

- اقرأ هذه اللوحة؟.

قرأ الرجل العبارة:

- لا تخف!.

ثم أشار إلى لوحة ثانية وقال له:

- اقرأ هذه أيضاً.

- لا تخف!.

- إذاً لمَ تخاف؟.

أجابه:

- أنا لست خائفاً.

رد عليه الخفير:

- خائف، خائف أنت.. لا تخف.

لكن عندما أجابه الرجل ثانية:

- لست خائفاً.

صرخ الخفير وأنبه قائلاً:

- "ولك" خائف أنت.

كان الخفير جاداً فيما يقول، لذلك رد الرجل متلعثماً:

- خائف لكن ليس إلى درجة كبيرة.

و قبل أن يتمم عبارته أتته صفعة قوية ارتطم بسببها رأسه بالحائط وعلى أثرها شعر بحاجة إلى التبول:

- ولك كلب ابن الكلب وكيف ستخاف أكثر من ذلك، ها أنت ذا خائف!.

بال الرجل من الخوف، ثم قال بينما كانت فخذاه تتبللان بالبول الدافئ:

- لن أخاف بعد ذلك، على كل شعرت بالطمأنينة عندما رأيتك.

لكن عندما أتته الصفعة الثانية على خده الثاني لم يكتف الرجل بالتبول بل خرئ تحته.

صرخ الخفير:

- ولك تقول إنك لست خائفاً وخوفك اختلط بخراك.

اندهش الرجل ولم يعد يعرف ماذا سيقول:

- أنت على حق فيما تقول، أنا خائف قليلاً، لأنني لست معتاداً على ارتياد مثل هذه الأماكن. هذه هي المرة الأولى.

راح الخفير من جديد يتحدث بتودد:

- لا تخف، انظر، لقد وضعنا في كل الأماكن لوحات كُتب عليها "لا تخف" كي يقرأها المواطنون، فلا تخف.

أجابه الرجل متملقاً:

- حسناً، لن أخاف... وكما تفضلتم، فلا شيء يدعو إلى الخوف.

صرخ الخفير فجأة:

- و لك يا حيوان ابن الحيوان، أما زلت خائفاً؟.

رد الرجل هامساً من الخوف:

- لست خائفاً ...

ثم راح يبكي مرتجفاً.

- ولك ما دمت غير خائف فلمَ الخوف إذاً؟...

- آه.. قليلاً.. يمكنك أن تعتبر ذلك.

بعد الصفعة التي لطمت وجهه دار الرجل حول نفسه لينهار على الأرض وسط الماء.

تابع الخفير حديثه واقفاً بجانب رأسه:

- إياك والخوف، لا تخف بتاتاً ... لا شيء يدعو إلى الخوف.

كانت هذه الكلمات والألم الناجم عن رفسة في رأسه هما آخر ما يتذكره، وبعد ذلك فقد وعيه.

مشفى (......) للأمراض العقلية والعصبية

جدول مراقبة المريض

الاسم: م. ج

تاريخ الميلاد: ١٩٢٣

تاريخ الدخول: ١٩٨١/١٠/٣٠

التشخيص: *Psychasthenia*

النبض:

الضغط:

مقياس الحرارة:

العلاج: ثلاث قطرات من *HADOL* وحبة *ANAFRANIL* يومياً.

الانتقام

كثيراً ما كان رب العمل قاسياً في تعامله مع عامليه، إلا أن معاملته لحيدر كانت تتسم بفظاظة وقساوة أكبر ولها صورة أخرى مختلفة تماماً. لم أستطع فهم ذلك، ولماذا هذه القسوة؟. لا شك أن حيدر كان بطيئاً في إنجاز ما يكلف به، إلا أن هذا لا يعني أنه كان يتوانى أو يهمل في عمله بل العكس تماماً، فقد كان يعمل دون كلال أو ملل، بل دون تباطؤ، نعم كان أكثر العاملين نشاطاً برغم أنه كان يتقاضى الأجر الأقل بين الجميع، إن شاباً نشيطاً ومجداً مثل حيدر لا بد أن يكون أجره أعلى من الجميع فيما لو عمل في مكان آخر.

كان المعلم فظاً غليظاً وقاسياً مع جميع عامليه، إلا أنه كان يعاملهم بمنتهى اللطف واللين فيما لو كان عنده ضيف أو زائر، لطف غير عادي بعكس تعامله مع حيدر.

يبلغ عدد العاملين في هذا المكان ما يربو على الأربعين شخصاً، كل واحدٍ منهم خبير في مجال عمله، أو كما يقال عبقري في مجال عمله، بينما كان حيدر الخبير الوحيد في جميع مجالات العمل، ومع ذلك لم يستطع حيدر استقطاب اهتمام معلمه، على الرغم من أنه لو تغيب عن عمله لتوقف العمل دون شك، أو لنقل إنه لو تغيب عن عمله ذات يوم بسبب طارئ أو مرض ألم به، لبدا واضحاً للجميع أنه غير موجود، حقاً إنه كان يقوم بأعمال ثانوية وغير مهمة، يعني أعمالاً

هامشية من إحضار وإرسال، نعم هامشية وغير مهمة، لكن لها انعكاساتها الأساسية على باقي مجالات العمل. ولو لم تنجز هذه الأعمال الهامشية لتوقفت الأعمال الرئيسة لا محال..

-حيدر جهز الشاي.

يذهب حيدر ويحضر الشاي، ومع ذلك يصرخ المعلم عند عودته:

- لمَ تأخرت؟..

-حيدر اطلب لنا سيارة أجرة!.

يقوم حيدر بطلب سيارة ومع ذلك يغضب المعلم لتأخره قليلاً.

-حيدر ضع هذه الرسالة في صندوق البريد!

-هيا ياحيدر أحضر الصحف بسرعة.

-حيدر خذ الوصفة واشتر لي الأدوية.

-هيا يا حيدر ادفع فاتورة الكهرباء وعد بسرعة.

- يا حيدر لمَ لم تنظف البلور بشكل جيد؟ عليك إعادة تنظيف جميع الزجاج بعد انتهاء دوامك

-ولك، هل عميت ألم تلاحظ أن زجاجة العطر فارغة، هيا اذهب واشتر زجاجة أخرى.

-أمسك معطفي.

-هيا لا تتلهى، اذهب بسرعة واجلب كل ما في صندوق بريدي.

-خذ هذه النقود، واذهب إلى المصرف وسدد قيمة هذا السند.

-أحضر باقة الزهور التي سبق أن طلبتها.

ولا ينتهي عمل حيدر، لأن طبيعة عمله غير معروفة، فهو مكلف بأي عمل، مسح الغرف، نفض الغبار عن الطاولات، تنظيف المراحيض. تشغيل مدافئ الغاز إذا ما تعطلت أجهزة التدفئة المركزية،

وإضافة إلى ذلك يقوم بمهمة صيانة أجهزة الاتصالات، كذلك بكل ما يتعلق بالبريد والمصارف، وغير ذلك من أشياء وأشياء... وبرغم هذا كان رب العمل يحقره ويشتمه، وكثيراً ما كان يقول له "ولك" ويصرخ به:

-"يا حمار" أو "يا حيوان" بل كان في بعض الأحيان ينعته بالكلب.

وجه حيدر لا يضحك للرغيف السخن "كما تقول العامة"، حتى أنني لم أره يضحك قط، وكيف له أن يضحك وجميع ما يقوم به لا يُعجِب أحداً؟.

ذات يوم مرض المعلم، ونقل إلى المشفى بسبب قصور في القلب.. جميعنا كنا ننتظر خبر وفاته، وإذا به يخرج بعد شهر من المشفى، نحل كثيراً وهزل جسده، حتى أن ثيابه باتت فضفاضة عليه، لذلك لم يكن أمامه إلا خياطة ثياب جديدة. بعد عدة أشهر أصيب بالفالج، وأدخل المشفى من جديد، وتم إنقاذه مرة أخرى بينما كنا نقول ها هو ذا قد مات أو سيموت. تحسنت صحته قليلاً فتم إخراجه من المشفى، وراح يتردد على مكان العمل بصورة متقطعة، كان مكتبه في الطابق الأول، لذلك كان لا بد أن يصعد عشرين درجة على السلم كي يصل إلى هناك.

كانت همته ضعيفة خاصة أنه شفي من مرضين مميتين، لذلك كان يصعد السلم ببطء شديد، وكثيراً ما كان يتوقف عند كل درجة كي يلتقط أنفاسه، وفي أثناء صعوده ونزوله كان يستند إلى جدار ويتمسك بحاجز السلم، وهكذا حتى يصل إلى مكتبه.

لكن لا أدري ما هي الأسباب التي أدت إلى تغير تصرفات حيدر بصورة مفاجئة.

كثيراً ما كان يقوم بحركات بهلوانية يعجز عنها أفضل لاعبي السرك المحترفين، وكثيراً ما كان يقوم بهذه الحركات لحظة صعود المعلم السلم مستنداً ومتمسكاً ولاهثاً، متقطع الأنفاس، وكثيراً ما كنت تشاهده وهو يتوقف في أثناء الصعود والنزول بينما تجد حيدر ينزل ويصعد راكضاً بسرعة كبيرة، حاملاً بكلتا يديه شيئاً ما. لا يمكنك إلا أن تستغرب عندما تشاهده وهو يركض بطريقة عجيبة، حتى أنك لا تستطيع مشاهدة أسفل حذائه وهو يلمس درج السلم، بل إنك في بعض الأحيان تسمع حفيف لمستهما الخفيفة من شدة السرعة، وفي أحيان أخرى تشاهده يقوم بحركاته الغريبة، ويحمل صينية عليها بعض الكؤوس وإبريق شاي بيد وبالأخرى بعض الملفات وتحت إبطيه أشياء أخرى.

و كأنه كان يتعمد القيام بمثل هذه الحركات الغريبة المدهشة لحظة صعود المعلم أو نزوله.

و كثيراً ما كان يصعد وينزل مرتين أو ثلاث مرات حاملاً بكلتا يديه شيئاً ما، بينما لم يتم المعلم رفع قدمه من درجة إلى أخرى، خاصة أنه كان يجد ما يسوغ صعوده ونزوله.

فقد دبت فيه الحياة، وبعدما كان لا يضحك "للرغيف السخن" أو "للفتاة الجميلة" كما يقولون، فأصبحتَ تراه يبتسم كثيراً، وهذا دليل تفاؤله ومدى سعادته وسروره.

كأن بين تباطؤ حركات المعلم في أثناء صعوده ونزوله، وسرعة حيدر علاقة عكسية، فكلما تباطأت حركات المعلم ازدادت سرعة حركات حيدر الغريبة العجيبة، وكأنه في ذلك يستعرض قدراته أمام المعلم. ولو قدر له أن يقوم بمثل هذه الحركات على خشبة السيرك

لصفق له خيرة مهرة السيرك، كان يجري بسرعة كبيرة كأنه نسيم ربيعي، وأنت تشعر به وكأنه سيطير من مكانه.

صار المعلم يخشى أن يرتطم به حيدر أو يلقيه أرضاً وهو يمر بجانبه راكضاً، من تأثير الزوبعة التي يخلفها في أثناء جريه، لذلك تجده يلتزم جانباً، ملتصقاً بالجدار ويرمقه بنظرات استغراب ودهشة.

أثارت تلك التغيرات دهشتي فسألته ذات يوم عن أسبابها:

- ما بك يا حيدر؟.. أجدك تركض على السلم كلما صعد المعلم أو نزل مثل الإعصار؟...

ضحك حيدر حتى بانت أسنانه:

- إنني أنتقم.

لم يصب التغير حيدر فحسب بل كذلك رب العمل، فتوقف المعلم من نعته بصوت عالٍ بالحمار والحيوان أو الكلب في بعض الأحيان، بل راح يلاطفه مثلما كان يلاطف الآخرين قائلاً "يا بني، يا صغيري، يا ولدي حيدر"، منذ أن راح يخشى أن يصدمه وهو راكض كالإعصار ويوقعه أرضاً بينما يقف هو ليلتقط أنفاسه.

لا تنسي البطاقات يا عزيزتي

كانا سيذهبان إلى أحد شواطئ شمال الأبيض المتوسط حيث زرقة البحر المزركشة بحزام أخضر جميل.

و بما أن مكاني عملهما مختلفان، فقد رغبا في التخلص من الضغوط النفسية التي يسببها عناء العمل، وهكذا ففي خمسة عشر يوماً من الاستجمام في البحر وأحضان الطبيعة الخلابة يتخلصان من كل معاناتهما، ويعودان إلى بيتهما وعملهما بنشاط وحيوية. ولكي لا يفسدا متعة الانتجاع بتحمل مشقة السفر وعناء الترحال بالسيارة فضّلا السفر بالطائرة.

ثلاثة أيام والزوجة تعد عدة السفر، فخمسة عشر يوماً ليست بالفترة القصيرة، لذا لا بد من إعداد الثياب الخفيفة والملابس الخاصة بالسباحة لخمسة عشر يوماً، كذلك بعض الكتب، وهكذا جهزت جميع هذه الأغراض في حقيبتي سفر وحقيبتي يد.

حجزا لهما مكاناً في بيت الراحة الذي سينزلان فيه عبر الهاتف، واكتملت جميع ترتيبات السفر عندما أحضر الزوج بطاقتي الطائرة.

كان الزوج لحوحاً، حتى أن زوجته سئمت وملت من كثرة إلحاحه وإصراره.

قال لزوجته عندما أعطاها بطاقتي الطائرة:

- يا عزيزتي، هاأنذا أعطيك بطاقتي الطائرة لكن إياك أن تنسيهما في البيت.

أثار كلام الزوج غضب الزوجة، وقالت له:

- أنت دائماً هكذا، لمَ أنساهما؟

- قلت ذلك على سبيل التذكير يا عزيزتي.

- متى، وماذا نسيت حتى تلح عليّ بهذه الطريقة.

لو رغب الزوج أن يحصي لها عدد المرات التي نسيت ومتى وأين، لدب الخلاف بينهما لا محال، إلا أن رغبته بقضاء فترة استجمام جعلته يتعامل معها بعقلانية منفتحة وقلب منير، ولذلك تغاضى عما سمع وقال:

- أنتِ على حق يا زوجتي العزيزة، أنت لا تنسين أي شيء، ولكن دنيا وأحوالها، قد تنسين هذه المرة، لذلك أرجوك أن تضعيهما في حقيبة يدك هذا المساء.

ردت عليه الزوجة الغضبى والمستفزة قائلة:

- هاه.. تقصد أنك لو لم تذكرني بذلك لما وضعتهما في حقيبتي.

- طبعاً ستضعينهما، طبعاً ولا أشك في ذلك، بل قلت ذلك للذكرى فقط.

ثم أردف قائلاً:

-كذلك لا تنسي المفاتيح كي لا نبقى في الشارع بعد عودتنا.

لم تجب الزوجة كي لا تخلق مشكلة، بل اكتفت ببعض هزات من رأسها.

و بينما كانا على مائدة العشاء يتناولان عشاءهما، ولكي لا تغضب زوجته قال لها بصوت خافت أقرب إلى الهمس:

- لم تنسي وضع البطاقات في حقيبة يدك أليس كذلك يا حلوتي؟.

ردت عليه الزوجة من بين أسنانها:

- لا لم أنس.

- لم تغضبين يا حياتي؟، كل ما رغبته فيه هو تذكيرك.

أعاد طرح مسألة البطاقات تلك الليلة عدة مرات وعلى مائدة الصباح قال لها متردداً:

- أخذتِ البطاقتين، أليس كذلك يا عزيزتي!.

صرخت الزوجة غضبى:

- كفى.

- كذلك رجاءً لا تنسي مفتاح الباب الخارجي.

وضعا الحقائب في سيارتهما الخاصة، ثم جلس الزوج خلف المقود، سأل زوجته وهو يمسح زجاج السيارة الأمامي من الداخل بقطعة قماش:

-رجاءً لا تغضبي يا حبيبتي، كنت سأسألك عن بطاقات الطائرة.

- كفى ...قلت لك مراراً إنني وضعتهما في الجيب الخارجي من حقيبتي، ومفتاح الباب الخارجي في حقيبتي الصغيرة وتلك الحقيبة في حقيبة يدي، هل استرحت الآن؟..

أقلعت السيارة، وقبل أن يقطعا الكيلومتر الأول قال لها:

- رجاءً هل لك أن تتفقدي حقيبة يدك مرة أخرى.

- ولمَ؟

- لا ، ولا شيء، كي تتأكدي من وجود البطاقتين.

- إنك ستزهق عقلي، لم أخرف بعد، ألم أقل لك إنني وضعتهما في حقيبتي.

و بعد أن قطعا مسافة أخرى قال لها :

- ليكن، يا عزيزتي، ما دمت تعرفين أنك وضعتِهما في حقيبتك، فهذا يعني حتماً أنهما هناك، فلمَ لا تتفقدينهما ثانية.

بربرت الزوجة عدة مرات وقالت:

- أنا لست مجنونة، لكن هل أفقدتك هاتان البطاقتان عقلك.

- ألا يمكن أن ينساهما المرء.

أجابت الزوجة بصمت عميق.

أردف الزوج قائلاً :

- و ماذا لو فوجئنا في المطار بأننا نسيناهما.

- لا يمكن أن تطيرا من حقيبتي!..

- أنت على حق في ذلك يا عزيزتي، مع ذلك أرجوك أن تتفقديهما ثانية.

- هذا يعني أنك مصر أن تفسد رحلتنا وفرصة استجمامنا.

- يا روحي، لا داعي إلى الغضب الآن، تفقدي حقيبتك وننتهي من هذا النقاش.

- أستغرب كثيراً كيف استطعت تحمل "نقك" عاماً كاملاً..

- إنك تضخمين الأمور.. ولن تقوم القيامة إن تفقدت حقيبتك،

لأننا إذا ما اكتشفنا في المطار أننا نسيناهما فلن نستطيع العودة وقطع المسافة الطويلة، ولن نستطيع اللحاق بالطائرة، أما موعد طيران الطائرة التالية فسيكون بعد ثلاثة أيام.

صمتت الزوجة وكذلك الزوج، إلا أنه لم يستطع تحمل وطأة الصمت أكثر من ذلك فراح يتوسل إليها:

- حياتي، حبيبتي، أتوسل إليك، لا تغضبي، رجاءً تفقدي البطاقات في حقيبتك؟..

- آه سأفقد عقلي.

كانا يقتربان من المطار عندما كرر الزوج طلبه ثانية:

-يا عزيزتي لدينا الوقت الكافي للعودة إلى البيت إذا تبين أننا نسينا البطاقتين في البيت، لكن إذا وصلنا إلى المطار وتبين أننا نسيناهما فلن نتمكن من العودة إلى البيت، هيا يا عزيزتي تفقدي حقيبتك هذه المرة فقط.

- سأصرخ الآن بأعلى صوتي هاه..

- حسناً، حسناً لا تغضبي، يا حبيبتي، أنا لا أرغب في إغضابك البتة، لكن ماذا تخسرين لو تفقدت حقيبتك.

نزلا من السيارة بعدما وصلا إلى الموقف المخصص في المطار، حيث سيترك الزوج سيارته.

وبينما كان الحمّال ينزل الحقائب من السيارة، سُمع صوت امرأة:

- حقيبتي؟، أين هي حقيبتي؟؟؟.. آه حقيبتي ليست هنا والبطاقتان في داخلها.

التفتت نحو زوجها مغيرة نبرة صوتها:

- أتترك أنت في رأس المرء عقلاً... هذه هي نتيجة إصرارك الدائم على البطاقات.

- كيف يعني؟

- نسيت حقيبتي في البيت في داخلها البطاقتان ومفتاح البيت.

رد عليها الزوج بهدوئه مواسياً:

- لا تنزعجي يا سكرتي..

هدوء زوجها ورصانته استفزاها أكثر وأكثر:

- و كيف لا أنزعج!، وكل ذلك بسببك، لقد أكلت رأسي بكثرة "نقك" وإلحاحك، لا تنسي البطاقات، لا تنسي البطاقات وفي النهاية نسيت الحقيبة.

- لا ضرر في ذلك يا حبيبتي، لا تنزعجي لقد حصل ما حصل.

- إيه اسمعوا ما يقول! لو لم تكن لجوجاً و"نقاقاً" لما نسيت.

أجابها بهدوء:

- إذاً لنعد إلى البيت.

جلس خلف المقود بعدما أعاد الحمال الحقائب إلى أماكنها.

جلست الزوجة بجانب زوجها في السيارة مبريرة ومبرطمة، ثم صرخت فرحة:

- آه، هاهي حقيبتي، آه يا ربي، لمَ لم أشاهدها؟، لقد انزلقت خلف الأكياس، ولك يا روحي هل أنا حمقاء حتى أنسى حقيبتي، ولك، أنت تفقد الشخص عقله بكثرة "نقك" وإلحاحك هاهي ذي

البطاقات والمفتاح، ثم راحت تنبش في جنبات حقيبتها، وكلما تعمقت في البحث بدا عليها السرور أكثر.

أما الزوج فقد راح يحدثها بهدوئه المعهود بينما كانت الزوجة تنبش في حقيبتها كالدجاجة:

- لا تستعجلي، وابحثي بهدوء ولا ترتبكي.

راح الزوج يرمقها بنظرات مرحة، بينما زعقت الزوجة بعدما أسبلت يديها متعبة وألقت الحقيبة جانباً:

-لا ترمقني بمثل هذه النظرات، لا البطاقات ولا المفتاح في الحقيبة.

لم يعد الزوج يعلم ما سيقوله كي لا يغضب زوجته، لكنه في الوقت نفسه كان مضطراً إلى أن يقول لها شيئاً ما كي يروّح عن نفسه فراح يبرير:

- ليست مشكلة.

أدار محرك السيارة ثم داس على دواسة البنزين لتنطلق السيارة.

التزم الزوج الصمت طول الطريق بينما كانت الزوجة "تحاكي حالها":

- ماذا كان سيجري لو أغلقت فمك، طبعاً كنت سأجلب البطاقتين معي فأنا لست حمقاء، كنت تلح عليّ باستمرار كي لا أنساهما وها هي ذي النتيجة.

حاول الزوج ابتلاع غيظه فالتزم الصمت، ولم يقل شيئاً، مما استفزَّ زوجته:

- ماذا بك؟ هل ابتلعت لسانك؟ لم لا تحكي، قل كلمة

واحدة. لكنها كادت "تطق" من شدة الغيظ عندما قال لها: لا شيء يستحق الاهتمام، لا تزعلي.

و هنا صرخت بأعلى صوتها:

-و الله ستفقدني وعيي بكلامك، ولك منذ أيام وأنا أحضر للسفر وأجهز الحقائب، ثم تقول لي لا تزعلي.

و صلا البيت، ونزل الزوج من السيارة ثم قال لها بصوت هادئ:

- حبيبتي ابقي عند الجيران كي أحضر صانع المفاتيح ليفتح لنا الباب.

تدوين تلك الليلة

بداية لا بد من القول، إن هذه الكتابة لا تُعتبر قصة، إنما دونتُ ما جرى لي في تلك الليلة دون زيادة أو نقصان، حتى أنني دونت ما جرى لي دون أن أقحم مشاعري وأحاسيسي في ذلك، نعم دونت كل ذلك بكل جوارحي. ستة وثلاثون يوما على تلك الحادثة، لا أدري هل سأستطيع تدوين أحداث تلك الليلة كما حدثت تماماً، مع ذلك فسأحاول.

ما دامت هذه الكتابة ليست بالأقصوصة فما هي إذاً؟ حكاية أم خاطرة، مذكرة عن ساعة أو ساعتين من رحلة الموت في تلك الليلة.

اليوم الأخير من العام ١٩٩١ والليلة التي تصل ١٩٩١ب١٩٩٢..

اليوم الأخير من السنة مرهق أكثر من أي يوم آخر، لأن العمل في هذا اليوم يكون مضافاً إلى الأعمال المعهودة، تحضير الهدايا التي ستقدم لأطفال ميتم عزيز نسين والعاملين فيه في تلك الليلة. هذه العملية ليست سهلة للناظر من الخارج. أفكر بتحضير الهدايا رويداً رويدا، لكي لا أؤجل الأمور إلى اليوم الأخير، لكن مثل كل مرة فأنا لا أنفذ ما خططت له.

في ميتمي ثلاثون طفلاً [1]، وإضافة إلى العاملين في الميتم وبعض الضيوف، يبلغ عدد المدعوين لحضور حفل رأس السنة حوالي أربعين

---

[1] -بلغ عدد الأطفال في ميتم عزيز نسين في العام ١٩٩٨ أربعة وثلاثين طفلاً / المترجم

شخصاً، عليّ تقديم هدية لكل واحدٍ منهم، لأطفالي أربع أو خمس هدايا، صغار السن هداياهم أكثر عدداً، وإن كانت أقل قيمة من هدايا الكبار... هذه الهدايا يجب أن توضب وتعلب وتلف بأوراق ملونة وشرائط زينة، كل حسب حجمها، كما يجب أن تزين بأشكال من ورق الكورنيش...

و لكي تعلب كل الهدايا وتزين يجب عليّ تجميع العلب والأوراق الملونة والأكياس الملونة والشرائط الخاصة طيلة السنة. وهي ليست جديدة. فهي مستعملة لأننا نجمعها من الهدايا الشخصية التي تصلني أو الهدايا التي تصل إلى الميتم، ولا نرميها أو نتلفها بعد استخدامها كوسائل زينة في حفل رأس السنة، بل نستخدمها مرات عدة، ثم نستخدمها للتدفئة، قد نتخلى عن الأشياء التي تصلنا، لكن هذا ليس بالأمر السهل.

حتى الهدايا يتم جمعها طيلة العام، فيتم شراء بعضها في أثناء زياراتي الخارجية ويشترى بعضها في أثناء زياراتي الداخلية. والباقي في أثناء تجوالي في استنبول، وغالبيتها مقدمة من قرائي، أو ضيوفي من الأجانب، تلك الهدايا تقدم في أعياد الميلاد، والأعياد. أما الهدايا الثمينة فتقدم في رأس السنة.

لكن ما هي هذه الهدايا؟.. كل شيء موجود.. بالونات كبيرة وصغيرة متعددة الألوان، بالونات بمزامير، نطاطات ملونة، مزامير متعددة الأشكال، بلابل، عربات معدنية صغيرة، سيارات متنوعة تعمل ميكانيكياً "عربات، حافلات، كميونات، سيارات إطفاء، سيارت إسعاف، سيارات شرطة" أقنعة وجه متنوعة، كرات يد وقدم، ألوان متنوعة، معجون تشكيل متعدد الألوان، دفاتر رسم، ألبومات

طوابـع، ألبومـات صـور، آلات موسـيقية نفخيـة، مسـاطر قيـاس، ساعات، دمى دببة بألوان متنوعة، كلاب وفيلة، ودمى عادية ودمى تبكي عند الضغط على بطنها، أقلام بـألوان متعـددة، مجموعـات شطرنج، صنانير للحياكة اليدوية، علاقات متنوعة للفتيات، أقواس وسـهام، دفـاتر مذكـرات، أقـلام حـبر، مجموعـة ألعـاب تركيبيـة مرسـلة مـن أوروبـا، أمـا للكبـار فمجموعـات ميكانيكيـة، حقـائب جلدية، "مفكرات"، أغطية رأس، أحزمة، دفاتر بأغلفة جلدية...

في السابق كنت أشعر بالتعب أكثر في أثناء التحضير لسهرة رأس السنة، لأنني كنت أقوم بتنسيق البهو الخزفي الذي نحتفل فيه ليلة رأس السنة. لكن الأطفال الذين أمضوا خمس، عشر سنوات، في هذا الميتم قد تعلموا كيفية تجهيز البهو، لذلك فباتوا يخففون عني ويقومون بتلك المهمة.

حبـال الزينـة ممتـدة مـا بين ثريـا وثريـا أخـرى، فوانيس ورقيـة، بالونـات ملونـة، شـرائط ملونـة، نجـوم ورقيـة ملونـة، كورنيش ملـون، إضافة إلى أشكال جميلة من الأوراق الملونة. لدينا أعلام ورقية صغيرة الحجم لكل الدول، نقوم بشك هذه الأعلام لنجعل منها حبال زينة نمدها على طريق البهو طولاً.

مأكولاتنـا ومشـروباتنا لسـهرة رأس السـنة جـاهزة منـذ يومـين، وقـد أشـرف عليهـا مديرنـا روشـين أولوسـوي، المكسـرات بأنواعـها، "المـازوات"، أنـواع مـن خـبز العيـد، أنـواع مـن الكـاتو، أنـواع مـن الشـوكولا، فواكـه. ومـن الأطعمـة الديـك الرومـي المحشـو بـالأرز، السلطة الروسية، المحاشي بالزيت "يالنجي"، الدجاجة الشركسية، الفطـائر وأنـواع مـن السـلطات وأنـواع أخـرى، والجميـع هنـا صغـاراً

وكباراً ما عداي يشربون النبيذ، أما أنا وشخص أو شخصان فنشرب العرق.

البهو الخزي في يشبه المسرح بارتفاعه، لذا فإن طلاب المرحلة الابتدائية والمتوسطة يقدمون فيه المسرح الإيمائي و يعزفون على الغيتار ويغنون.

و يتم توزيع الهدايا لدينا بالقرعة، لكن أية مصادفات تحصل حتى ينال كل واحد منهم في نهاية الأمر هديته المقررة، فعلى سبيل المثال القلادة الفضية أو الحلق الذهبي لا يمكن أن تكون من نصيب الصبي، والدور الكبير في تحديد تلك القرعة يكون لخفة يدي.

بعد ذلك نبدأ بلعبة المراهنات "القمار"، فمنذ بداية العام أقوم على تجميع القطع النقدية الصغيرة في علبة كبيرة. أقوم بداية بتوزيع النقود على جميع الأطفال وعلى المشاركين في السهرة بالتساوي على ألا تقل حصة الواحد عن خمسة آلاف ليرة تركية[1]، وتبدأ لعبة القمار بقصاصات ورق مرقمة، تُباع هذه القصاصات، وبعد ذلك يبدأ السحب بمتعة وتلذذ من الكيس المخصص. لنقل إنني سحبت من الكيس البطاقة رقم ٣٤، أذكر الرقم بشكل استعراضي وأقول الرقم أربع، وكل من يحمل هذا الرقم يبدأ بالانفعال، فأقول وثلاثين وتتعالى الضحكات والصيحات..

في تلك الأثناء يكون التلفاز يعمل لكن دون أن يشاهده أحد.. وبعد ذلك نلعب لعبة سباق الخيل، يليها لعبة ادفع ليرة وخذ خمساً، ثم لعبة الروليت، طبعاً هذه الروليت من صنعنا..

---

[1]-يعادل هذا الرقم حسب الأسعار الجارية نصف ليرة سورية ./المترجم

من المعروف أن الصغار يغادرون الغرفة إلى غرف نومهم في الساعة التاسعة والنصف، أما في سهرة رأس السنة فيبقون معنا حتى منتصف الليل، وبعد استقبال العام الجديد يغادروننا واحداً خلف الآخر إلى النوم، ففي الساعة الثانية يكون من هم في المرحلة الإعدادية قد ناموا، لا أحد في ميتم عزيز نسين يطلب من أي طفل الذهاب إلى النوم ففي هذا الميتم لا تطبق النظم والقوانين التي يضعها الآخرون، كل واحد منهم يضع نظمه وقوانينه، حتى الصغار يتم تربيتهم على ذلك.

هكذا أيضاً في صباح يوم الثلاثاء ٣١ كانون الأول من العام ١٩٩١ كنت أقوم بتجهيز الهدايا التي ستوزع في سهرة رأس السنة.. لكن آهٍ من قلبي هذا.. وعكة قلبية ثانية، في السنوات الخمس – الست الأخيرة تأتيني مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، يصيبني الإعياء وكأن روحي ستفارق جسدي. عيناي تغطيهما الغشاوة، وتضعف رؤيتي، أشعر كأن نبضات قلبي على وشك التوقف.. تستمر هذه الحالة بحدود النصف ساعة. وفي بعض الأحيان تداهمني فجأة في الطائرة وفي أحيان أخرى في السيارة أو في اجتماع ما أو في البيت.. في كل مرة أشعر أنها رحلة الموت.. ولا يُعتبر هذا الشعور بشعاً لأن الإنسان يقترب من الموت كلما عاش أكثر.

أستطيع تجاوز تلك الوعكة بسرعة أكثر عندما أضع حبة صغيرة من *ISORDIL* تحت لساني، لكن بقدر ما يناسب هذا الدواء وضع قلبي، إلا أنه يرفع مستوى الضغط في عيني. لذلك أحاول قدر الإمكان الاعتدال في استخدامه..

نعم هكذا تجاوزت الوعكة التي داهمت قلبي صباح يوم الثلاثاء في ٣١ كانون الأول. ومهما كانت الأسباب فالحياة مستمرة وستستمر [1]. ثم هناك ما يجب عمله، أعمال وأشغال، كتابات، رسائل تنتظر الرد عليها، صحف للقراءة، مجلات، كتب، ملاحظات.. وهدايا للأطفال لا بد من تحضيرها حتى المساء بأي شكل من الأشكال.

أنا دائماً هكذا، أقوم بتأجيل العمل حتى اللحظة الأخيرة بحجة أن العمل الذي يحتاج لإنجازه إلى يوم كامل أنجزه في ساعتين، وفي النهاية لا أستطيع إنجاز ذلك العمل.

كنت قد بدأت بتوضيب هدايا الأطفال وتعليبها حوالي الساعة الرابعة، وحتى الساعة السابعة كنت أقوم بشتى الأعمال هنا وهناك حتى أنهيتها لكن عندما انتهيت تماماً، ناديت على أطفالي الكبار كي يضعوا الهدايا في الأكياس، وبعد إنجاز هذه المرحلة تهاويت تماماً، يووووه.. على ما يبدو فإن هذه المرة أصعب من غيرها.

ليست الأسطر السابقة هي ما رغبت في كتابتها في "تدوين تلك الليلة" بل ما سيأتي..

أتهاوى على أريكتي... وأي ألم أشعر به في قلبي، أتلوى ألماً، أعتصر، أنطوي على نفسي من شدة الألم، ثم استقيم واقفاً، أتمدد على ظهري، استدير جانباً، ثم أتمدد على بطني دون فائدة.. وكأن جرحاً قديماً داخل قلبي يشق ويفتح ويحفر بسكين ثانية. إن هذه الأزمة لا تشبه بتاتاً جميع الأزمات القلبية التي أصبت بها سابقاً...

---

[1] -توفي الكاتب التركي عزيز نسين إثر نوبة قلبية في ٦ تموز ١٩٩٥/المترجم

أمامي على الطاولة المتوسطة علبة *ISORDIL*، والمسافة الفاصلة ما بين الأريكة التي أتلوى عليها والطاولة تقدر بحوالي المترين، ومع ذلك فأنا لا أستطيع النهوض، لا أستطيع تناول علبة *ISORDIL.* آلام غير محتملة، فأنا عادة أتحمل الآلام، لكن بما أن القدرة على التحمل لا إرادية.. لذلك فأنا في وضع يرثى له..

أقول بيني وبين نفسي، إنها الخاتمة، هاهو ذا الموت قد أتى ليأخذني مستسلماً، لا، لن يستطيع الموت أن يأخذني مستسلماً بل يستطيع أسري. إن الموت أساساً... على ما يبدو سيأسرك.. من المعروف أن للأسير الشرف والفخر، والأسر أفضل من الاستسلام..

و غطى الظلام أرجاء الكون..

آه يا أطفالي، إنهم في الأعلى، منتشون بفرحة الهدايا التي سيحصلون عليها، آه كم كان خياري مناسباً للحظة الموت. أسمع وقع أقدامهم وهم يركضون. يا للهراء!.. ألن أستطيع الموت بعد سهرة رأس السنة؟

أشعر بانسلاخ روحي من جسدي، إذن سأموت، آه لو يأتي أحدهم ويعطيني حبة من علبة الدواء.

بعد ذلك لن يستطيع أحد المساعدة.. كم ستستمر.. عشر دقائق أم نصف ساعة.. تفوه!! ستكون سهرة رأس السنة لأطفالنا مثل الزقوم...

يا للخسارة لن أستطيع كتابة كيف مت.. وأكثر ما يزعجني هو هذا الشيء. فالكاتب حتى لو دوّن كل لحظات حياته إلا أنه سيبقى عاجزاً عن كتابة موته. على الرغم من أن الموت من أهم حوادث الحياة، وهاأنذا ذاهب دون تدوين أهم لحظة من لحظات حياتي.

أتذكر مالابرته.

أظن أن كل كاتب، وعلى وجه الخصوص، عندما يأسره الموت يرغب في تدوين أحاسيسه ومشاعره و ذكرياته عن تلك اللحظة، لكن هذه الرغبة ليست واقعية. فهذا الشيء الوحيد الذي لا يمكن تدوينه.

هل هذه حقاً هي الرغبة الأخيرة لكل كاتب، بأن يُسمِع صوته للمرة الأخيرة؟.. وقد يكون من غير الراغبين.

لهذا السبب تذكرت مالابرته، الذي استمرت فترة تسليم نفسه للموت، لذلك فقد طلب تسجيل بكائيته "أغنية الرثاء" وهو يلفظ روحه، وهكذا تحدث حتى الرمق الأخير، وسجلت كل اللحظات، مشاعره وأحاسيسه سعاله وأنينه، وربما بكاؤه؟، وآهاته، نعم ثبت كل شيء حتى اللحظة الأخيرة.

أسمع صوت وقع أقدام، هذا صوت مشية أحد الأطفال.. إنه يفتح بابي:

- جدي ي ي ي، الطعام جاهز ... ونحن في انتظارك.

هذا صوت حقي! تخرج الكلمات من فمه كالقذائف الموجهة.

-ابدؤوا بالطعام الآن، وأنا سألحق بكم.

آه، لن أكتب كيف مت فهذا أكثر إيلاماً من الموت. و بعد ذلك؟..كم أنا أبله وأحمق، أفكر بالسروال الداخلي، أصبت في هذا الشهر ثلاث مرات بنزلة برد قوية، وعندما تحسنت قليلاً أصبت "بالأنفلونزا"، قالوا لي إن السبب هو الاغتسال المتكرر، وأنا منذ أسبوع لم أستحم، لذلك بدلت قميصي الداخلي أما سروالي الداخلي فلم أبدله، والآن ماذا سيحصل؟!!.. عليّ الصعود وتبديل ملابسي

الداخلية ... وسروالي المتسخ..

وقع أقدام من جديد، وهذا أيضا أحد الصغار:

-جدوووو..

هذا صوت ستشكين..

- هيا، الجميع أخذ أماكنه على مائدة الطعام.

- ابدؤوا وأنا سآتي بعد قليل.

أفكر بوصيتي، لم تركت كتابتها إلى هذا اليوم؟.. كان يجب أن أكتبها منذ فترة طويلة، كنت أعد مشروع وصية بين لحظة وأخرى. لم أكتبها لأنني كنت أظن أن الموت بعيد عني وأنه لن يأتي إلي في الفترة الحالية، ألن أموت في يوم آخر؟.. ثلاثون طفلا في انتظاري حول المائدة، لو تجاوزت ليلة رأس السنة أو لو كانت قبلها بيومين أو ثلاثة.

-جدووو.

في هذه المرة أتت سيما، والتخلص منها صعب جدا:

- أنا مريض يا ابنتي، هل لك أن تنادي العم روشين؟..

يأتي مدير ميتمنا، ينير المصباح، قلق كثيرا عندما رآني في هذه الحالة، أطلب منه علبة الدواء من على الطاولة، أضع حبتي *ISORDIL* دفعة واحدة تحت لساني، يعرض السيد روشين علي أن يطلب لي طبيبا من "تشاتالجه". إذ كان يلزمنا ساعتان كي نصل إلى مشفى الضمان الاجتماعي في "صاماتيا". ولا يمكنني الصمود طيلة ذلك الوقت، والأنكى من ذلك كله أنها ليلة رأس السنة، وهذا يعني أن الطبيب الخفير سيطلب الطبيب المختص من بيته في أجمل لحظات رأس السنة، إنها أسوأ لحظة للموت:

-اصعدوا أنتم يا روشين أفندي وابدؤوا بالطعام.

-الأطفال يرفضون البدء بالطعام قبل مجيئك.

أشعر بارتخاء في حلقي وصوتي يرتجف:

-حسناً، حسناً، اصعدوا أنتم الآن، رجاء أطفئ النور، سآتي بعد قليل.

أشياء كثيرة لم أنجزها بعد، آه ما أكثر الأعمال التي كان يجب عليّ إنجازها.. هاأنذا أغادر الدنيا وأنا مدين لها.

من ذا الذي مات غير مدين للدنيا؟ بل هناك من هو دائن، أمثال أينشتاين أو شكسبير..

إن الأعمال التي تركتها كان لا بد من ذكر بعضها في وصيتي.

إن أهم ما يجب كتابته في وصيتي هو ما يسمى بالسفالة التي تسمى مراسم الجنازة.. النفاق.. بكلمة واحدة إنني أكره مراسم الدفن الخداعة وأشمئز منها.

كم تضغط الآلام على قلبي. فكأنَّ سكيناً مُثَلَّماً وصدئاً يقطع قلبي.. أرغب في البقاء وحيداً في اللحظات الصعبة القاسية، كان يجب أن لا أكون مع الأطفال في الميتم.

-قادم... قادم...

رحت أستند إلى الكراسي والجدران حتى استطعت النهوض. خرجت من الباب، ثم من باب البهو، أعرف درجات السلم عن ظهر قلب، ست درجات بعدها فسحة صغيرة، تليها ثلاث درجات، بعدها عشر درجات، لا أرغب في أن يراني الأطفال وأنا أستند وأتكئ على حاجز الدرج وأتوقف عند الصعود. عند دخولي البهو الخزفي حاولت

تجليس ظهري وتثبيت خطواتي وإظهار ابتسامتي. تركوا مكاني فارغاً، جميعهم ينظرون نحوي، صرخت قائلاً:

-ما بكم لم تملؤوا الكؤوس بالنبيذ؟

تبدأ همهمات الأطفال وصوت طرقات الكؤوس والسكاكين والشوك بالصحون.

أنا وروشن أفندي سنشرب العرق.

ترتفع الكؤوس عالياً..

على المائدة كل ما لذ وطاب.

أنا لا أشرب العرق، لا أستطيع شربه، لكنني أحاول أن أظهر أنني أشرب، حتى الأكل كذلك.

في زاوية مرتفعة من زوايا البهو يقدم الأطفال مسرحية إيمائية، وفي أحد الفصول يحاولون أن ينتقدوا إدارة الميتم، فنحن نقدم لهم مرة واحدة في الأسبوع الحساء بدل طعام الإفطار، ويعلموننا من خلال هذا الفصل إيمائياً عدم استساغتهم للحساء. فهمنا، فهمنا.. بعد الآن لن يقدم الحساء مع وجبة الإفطار، تعجبني الانتقادات عبر الفن.

بعد ذلك يغنون.

يضحكون ويقهقهون فرحين.

نوزع الهدايا من المفترض أن تكون بالقرعة، كل واحد يرفع هديته عالياً ليظهرها، أقوم إلى غرفة مكتبي وأجلب العلبة المليئة بالقطع النقدية المعدنية التي ادخرت فيها طوال العام. ثم أقوم بالتوزيع المتساوي على الجميع، بعد ذلك يبدأ السحب، هذه هي المرة الأولى التي لن أقوم بذلك بنفسي.

على شاشة التلفاز تظهر راقصة تهز خصرها، لكن لا أحد ينظر.

أحاول إظهار ابتسامتي، أقول للأطفال إنني مجبر على النوم، ويجب أن آخذ قسطاً من الراحة.

هذه هي المرة الأولى التي لن أكون معهم في منتصف ليلة رأس السنة.

أعض على أسناني كي أمشي منتصباً. أدخل غرفة نومي وألقي بجسدي على السرير.

يهدأ الألم في قلبي، مرهق أنا وكأنني مهروس تحت الأرض وأنا أحملها على ظهري.

أفكر بعودتي من رحلة الموت، لكن إلى متى؟ من يدري ...

أنام على ضحكات الأطفال وقهقهاتهم المسموعة من الصالون.

❖ ❖ ❖

لم أمت، لكنني حاولت تدوين مشاعري وأحاسيسي، وأفكاري عن تلك الليلة التي ظننت أنني مت فيها،

و جهدت أن تكون كما حدثت تماماً، لم أمت، ولكن الأزمة القلبية التي عشتها ليلتها كانت بمنزلة ناقوس الموت. وكأن الموت أعطاني فرصة لكتابة وصيتي، ومع ذلك وحتى موعد تمديدي على طاولة العمليات لم يكن الوقت كافياً لكتابة كامل الوصية، لكنني كتبت أهم ما أرغب فيه.

أتمنى أن أخرج من غرفة العمليات سليماً معافى، ومن ذا الذي يدخل إلى غرفة العمليات ولا يتمنى هذه الأمنية؟

مرةً ثانية عندما يسمح لي الموت ويمنحني إجازة سأعمل جاهداً لإنهاء جميع الكتابات التي أنا مدين بها للدنيا، أعرف تماماً أن هذا الطلب غير منطقي، ومع ذلك فإني لا أرغب أن أموت وأنا مَدين للدنيا.

وهكذا رأيتم أن هذه الكتابة ليست قصة قصيرة، بل شرح عن زيارة الموت لي في تلك الليلة كي يلفت انتباهي.

تشفيقيه ٧ آذار ١٩٩٢

واقعة مضحكة جداً

كان ينتظر أن تغفو زوجته في نوم عميق، كي يقوم، إذا ما غفت، إلى ما كان يفعله منذ عدة ليال، فيتسلل من فراشه كي يفكر ويخطط فيما سيقوله لذلك الغني الذي سيطلب منه قرضاً. وكان هذا أمله الأخير.

و لكي تظن زوجته أنه غفا حاول أن يتسمر تحت لحافه كلوح من الثلج، لكن لسوء الحظ، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، إذ راح يتقلب تارة إلى هذا الجانب وتارة إلى ذاك.

كان على ثقة من أن زوجته ستقول له "ما بك يا روحي تتقلب كثيراً". مسكينة هي أيضاً فمنذ ليالٍ لم تذق طعم النوم.

- ماذا تقولين، هل أذهب إليه وأطلب منه؟

خلال الأيام الماضية وجه هذا السؤال إلى زوجته مئات المرات.

تجيبه زوجته بصوت ناعس:

- هيا حاول أن تنام الآن، وغداً صباحاً نتحدث في هذا الموضوع !.

كيف له أن ينام وهذا اليوم أيضاً كانت صالة المسرح شبه فارغة إذ أنهم قدموا عرضاً أمام حضور لم يتجاوز عددهم الصفين من المقاعد، بل إن هذين الصفين لم يمتلئا إذ كان فيهما بعض المقاعد الشاغرة. نظر إلى المشاهدين في أثناء العرض وابتسم، وهو في أشد اللحظات جدية. لم يكن يؤدي دوره على خشبة المسرح كإنسان، بل كرجل آلي، وفجأة لمعت في مخيلته فكرة غريبة، آه لو يحصل عراك

بين المشاهدين والمسرحيين، وبما أن عدد الممثلين أكبر من عدد الحضور فإنهم سيضربونهم ضرباً مبرِّحاً.

سألها ثانية:

- ماذا تقولين هل سيقرضني؟.

أجابت زوجته قائلة:

- يا روحي اطلب منه، فإن أعطاك فهذا حسنٌ، وإن لم يعطك تُلغِ الفكرة من رأسك وتسترح.

- نعم أنت على حق فيما تقولين، سأذهب وأطلب منه.. لكن كيف سأطلب؟.. عيب علي القيام بذلك.

لم تجبه زوجته.. لأنه كرر فكرته ثلاث مرات منذ عودتهما من المسرح في الثانية ليلاً.

كانت تعرف زوجها وطريقة تفكيره، فهو يظهر نفسه مقتنعاً بأفكار الآخرين كي يصدقوه إذا ما طرح عليهم فكرة ما.

وكي يكتسب الدعم والجرأة لم يكتف بطرح الأسئلة على زوجته بل راح يسأل منذ خمسة عشر يوماً كل من حوله من أصدقاء وخلان.

منذ ثلاثة أعوام وأمور مسرحه تسير من سيئ إلى أسوأ. فقد بلغ السيل الزُّبى ووصل نصل السكين إلى العظم... ولم يعد الأمر يطاق.

سبق أن قدم هذا الرجل الغني يد العون إلى صاحب صالة أو صالتين مسرحيتين خاصتين، لقد كان غنياً إلى درجة أن كل هذه المساعدات التي قدمها لم تؤثر في وضعه المادي بتاتاً.. إضافة إلى ذلك فهو لم يكن يود أن يطلب مساعدة دون مقابل، بل قرضاً، وليسأل من يشاء هل تأخر عن سداد ديونه حتى الآن. كان يسدد ديونه بشكل

كامل. يكفيه أن ينقذ مسرحه في هذه الظروف العصيبة.

- هاه؟...ماذا تقولين هل أذهب وأشرح له ظروفي؟.

كان ينتظر أن تقول "طبعاً ... بالتأكيد"، وكان إذا ما سمع هذه العبارة يسأل قائليها "ألن يكون عيباً" مظهراً بذلك عفة نفسه وشموخه.

- يا روحي، وما العيب في ذلك؟ فأنت الممثل الأكثر شهرة، ممثل ناجح والجميع يعرفونك، وليس ثمة من لم يسمع باسمك ... لكن ماذا لو سمع أحدهم بأنك ذهبت وطلبت المساعدة من رجل أعمال؟!.. يا روحي من ومن أين سيسمع وسيعرف.. لا؟ سيسمعون. إيه من يود أن يسمع فليسمع.

كان يتصل بجميع أصدقائه ومعارفه بوساطة الهاتف، لأنهم إن لم يسمعوا منه فسوف يسمعون من الآخرين ويشمتون به، لذلك فمن الأفضل أن يعلمهم مسبقاً. لأن تصرفه إذا كان معيباً حقاً فيكون قد ألقى بجزء من هذا العيب على عاتق كل من شجعه، وهكذا لن يستطيعوا أن يشمتوا به.

- يا هوه من الصعوبة بمكان أن تذهب وتطلب قرضاً من شخصٍ لا تعرفه..

أجابت زوجته في لحظة إغفاءتها قائلة:

- أيعقل أنه لا يعرفك؟..

تكبره كثيراً هذه الكلمات، لأنه من حيث المعرفة فلا بد أنه يعرفه، إذ إنه قد كتُب عنه الكثير ونُشرت صوره، وربما كان قد زار مسرحه وشاهد عروضه عدة مرات.

حتى أنهما تعارفا ذات ليلة... لكن لمَ لم يتقرب منه جيداً تلك الليلة طالما أن الفرصة قد سنحت؟.. كان متعباً للغاية، علاوة عن ذلك فقد كان الوقت متأخراً ولا بد من أن يستيقظ باكراً كي يجري تدريباته المسرحية "البروفة". كان يقف في موقف الباص عندما توجهت إليه بسرعة سيارة غريبة وتوقفت بجانبه مصدرة صوتاً شديداً من فراملها، ولو لم تتوقف لسحق بين السيارة والجدار. عندما انفتح باب السيارة وجد نفسه وسط قهقهات عالية، الهواء وبرودة الليل المنعشة كانا يحملان صوت القهقهات من نوافذ السيارة وأبوابها، ثلاث نساء ورجلان كانوا داخل السيارة. عرف البروفيسور الجالس خلف المقود. كان هو ذلك الذي اندفع بالسيارة نحوه بقصد المزاح. عانقه وهو منتشٍ من تأثير الشراب. تَعَّرفَ في البداية على الرجال الجالسين داخل السيارة، هذا يعني أنه من النوع الذي لا يعير النساء انتباهاً، قام البروفيسور بتقديمه إلى صديقه بكلمات تبجح وعبارات مجاملة، الفنان الذي نفتخر بوجوده... فنان كبير... ذو قيمة عالية.

هذا الشاب الذي تعرف عليه تلك الليلة هو نفسه رجل الأعمال الذي كان يفكر منذ خمسة عشر يوماً كيف سيطلب منه ديناً. جذبوه من يديه كي يركب معهم في السيارة قائلين "تعال معنا، هيا" كي يلهوا معاً حتى الصباح، كانوا رجلين وثلاث نساء، وهذا يعني أن إحداهن ستكون من نصيبه، راح يمعن النظر فيهن، ثلاثتهن جميلات وكأنهن دمىً مصنوعة من البلور، فلو وقعن على الأرض فسيتكسرن لا محال، شعورهن كانت تتطاير من فتحة السيارة العلوية وكأنها ريش طيور ملونة مثبتة على رؤوسهن. كن يضحكن

باستمرار وكأنهن دمى ميكانيكية ضاحكة ستتوقف عن الضحك في حال انتهت تعبئتهن الميكانيكية.

أيـاً كـانت حركاتـهن الأخـيرة، وتصرفاتـهن، فقدمـاه لـم تطاوعاه على مرافقتهم.. قد يكون السبب تجمد قسمات الضحك على وجه إحداهن، أو أنه ظن أنهن سيبكين بعد قهقهاتهن غير الطبيعية.

لم يركب في حياته مثل هذه السيارة قط، داخلها يشبه صالة فاخرة. وعلى الأغلب صنّعت خصيصاً لـه. إنـهم يشـربون المشـروبات الكحولية في بار أميركي مصغر.

لـو فكـر يومها أنه سيطلب ذات يـوم مـن رجـل الأعمـال ذلـك قرضاً، لرافقهم في مجونهم ولهوهم حتى الصباح، ولحاول التقرّب إلى رجل الأعمال، لكنه لم يأبه لهم ولم يعرهم يومها أي اهتمـام، لأن أعماله كانت تسير على ما يرام. مسرحه يعج بالحضور، ويدفع حقوق المؤلف بشكل كامل دون أي تلكؤ. وليس مديناً تجاه أي من ممثليه. حتى أنهم كانوا مسرورين منه كثيراً وليس كما هو عليه الحال الآن.

بدأ يلقي على نفسه مسؤولية فشله، إنه يكاد أن يشك بفنه، أين هو تصفيق الحضور الذين كانت صالة مسرحه تضيق بهم، حتى أنه كان يشعر بالدوار في رأسه وسط هذا التصفيق وكأنه مستلق على أمواج البحر، خاصة أنها استمرت ذات مرة عشر دقائق، ووسط هذا التصفيق، طلب فتح الستارة ليظهر الممثلون أمام الجمهور بعد انتهاء العرض أكثر من عشرين مرة.

حسناً وماذا الآن؟..ما الذي جرى حتى انعكست الأمور خلال

ثلاث سنوات؟.. هل سئم المشاهدون منه؟... لكن كيف ذلك وهو لم يتجاوز الخمسين من العمر؟... يعني كيف يتوقف عمله الفني وهو في أكثر مراحل عمره عطاءً؟.

فكر بهجر المسرح، لكن ماذا عساه أن يعمل بعد ستة وثلاثين عاماً أمضاها وهو يستنشق غبار خشبة المسرح؟، وكم من الثواني سيطرت عليه فكرة الموت أو الانتحار، وفجأة راودته فكرة، ولكي يطردها حاول هز رأسه عدة مرات.

لا، لا لو وجد من يقرضه بعض المال لاستطاع إعادة الأمور إلى مجاريها، بل لعادت أفضل من السابق.... اندفع ثانية في حديثه:

- ماذا تقولين يا حبيبتي هل أذهب إليه غداً صباحاً؟..

لم تجبه زوجته، ومن طريقة تنفسها يتبين أنها نامت، سكن في مكانه بلا حراك كي يغادر سريره دون أن يوقظها، ثم انسحب رويداً ونزل عن سريره، ليدخل غرفة أخرى.

راح يكرر ثانية ما سيقوله لرجل الأعمال، ذات الكلام الذي كان يجري تدريبات عليه منذ أربع ليالٍ، وكأنه يقوم بحفظ دور مسرحي يحبه كثيراً.

مهما حصل فسيذهب غداً، وكما قالت زوجته فإن منحه القرض المطلوب فيكون قد حل مشاكله، وإن لم يمنحه فهو بذلك يكون قد أراح رأسه وفكره. لكن ماذا عليه أن يقول له. بداية لا بد أن يقتضب الحديث لأن رجال الأعمال يحبون الاختصار في الكلام، ولا وقت لديهم للأحاديث الطويلة، لذلك فلا بد من إيصال طلبه في عدة جمل، وأية حال فلن يتملق كي يظهر إمكانياته. باختصار،

سيقول له أن أموره صعبة وإنه في حاجة إلى بعض الأموال، ومعروف عنه أنه سبق وأن ساعد مسارح خاصة أخرى. وهل سيقرضه كونه من عشاق الفن والمسرح؟

و لا بد أن يثق بأنه خلال فترة قصيرة سيعيد إليه ما اقترض منه.

ثم قال للممثل الظاهر على المرآة:

- جميع الأمور جاهزة تماماً يا صديقي.

"إنه دور العمر... لكنني لن أقوم بهذا الدور على خشبة المسرح... بل سألعبه على أرض الواقع.. وهكذا أصبحت الحياة خشبة مسرح... مسرحية العيش.. وهو سيقوم بدور الممثل الأول في تلك المسرحية".

وحسب أقاويل أصدقائه لن يحتاج إلى الحصول على موعد للقاء رجل الأعمال، لأنه يكون في مكان عمله في الساعة الثامنة والنصف من صباح كل يوم، لذا فلا بد أن يذهب في هذه الساعة ويطلب من سكرتيره اللقاء به... فنان مشهور، إذن سيوافق على لقائه فور سماعه باسمه.

راحت الساعات تئن في مسيرها والزمن يتباطأ في مشيته، نهض وحلق ذقنه ولبس أفضل ما عنده، ثم قام بعمليات المكياج الضرورية، لكنها لم تكن هذه المرة لتقديم مسرحية، بل من أجل حياة حقيقية، ثم كتب لزوجته النائمة ورقة ووضعها فوق "الفيترينة" كتب فيها:

حبيبتي:

لوتركت الأمور لي لما ذهبت، أما ذهابي الآن فقد كان تلبية

لإصـرارك علـى الذهـاب، لذلـك خرجـت مـن البيـت بـاكراً، كـي أتمكن من لقائه في هذا الوقت.

حتى لو استدان منه فسيقول لزوجته "ذهبت نزولاً عند رغبتك"، وهذا الكلام لن يكون لزوجته فقط بل لأصدقائه أيضاً "لو لم تطلبوا مني لما ذهبت إليه حتى لو مت، لكن عندما طلبتم...."

و هكذا سيتخلص من الخجل.

خرج من بيته في السادسة والنصف، تسكع وجاب الشوارع لمدة ساعتين، وفي الثامنـة والنصـف تماماً كـان في مكـان عمـل رجـل الأعمـال إياه. عرفته فتاة قسم الاستقبال مباشرة وسألته باسمه عن طلبه، وكيف لا يعرفونه، بالتأكيد سيعرفونه... وهو نجم متألق، ليخرج رجل الأعمال ذاك إلى الشارع، لنرى كم شخصاً سيعرفه؟.

أعلمته فتاة الاستعلامات أنه لم يأت بعد، كيف ذلك، وهو الذي يكون في مكان عمله منذ الثامنة والنصف؟.. نعم هو كذلك، لكنه كان مسافراً في مهمة إلى الخارج وسيأتي في العاشرة.

"تفضلوا يا سيدي في العاشرة، وهاأنذا أكتب اسمكم في رأس القائمة وسأعلم السكرتيرة بقدومكم".

سار ثم دخل حديقة، واشترى كعكة "سميد"[1]، فمنذ زمن طويل لم يأكل كعكاً من هذا النوع. مرة أخرى راح بعض المارة يلتفتون نحوه ليكسبوا رؤيته حتى أن منهم من كان يلقي التحية عليه.

كان نهاراً جميلاً، والعصافير تزقزق بسعادة محيية هذا النهار الجميل، وهو ما يزال يذكر ما سيقوله عند اللقاء.

---

[1]-السميد نوع من أنواع الدقيق ، أساسه قشرة القمح

في الساعة العاشرة تماماً كان أمام باب رجل الأعمال:

- تفضل يا سيدي هو في انتظارك.

سارت أمامه إحدى الفتيات ترافقه إلى مكتب رجل الأعمال، دخلا المصعد وصعدا إلى الطابق الرابع. فتحت الفتاة الباب ليدخلا صالة فسيحة، كانت صالة جميلة تلفت النظر، مفروشة بأثاث فاخر جداً، وكان رجل الأعمال جالساً خلف طاولته، وفتاة غاية في الجمال تجلس أمام الطاولة، كانت على الأغلب هي سكرتيرته. التدريبات التي أجراها خلال الأيام التي خلت كانت مخصصة لشخصين هو ورجل الأعمال فقط، و لم يعط السكرتيرة دوراً في ذلك العمل، حتى أنه لم يفكر في هذا الموقف بتاتاً، وما داما جالسين أحدهما قبالة الآخر وهما صامتان، فلن يتحدث أمام تلك الفتاة بيسر وراحة.

نهض رجل الأعمال من خلف طاولته واتجه نحوه ماداً يده للتحية:

- أرجو أن تكونوا بخير يا سيدي.

كم هو رجل لطيف، كان يتحدث مع الفنان ذاكراً اسمه حتى.

قد يخرج سكرتيرته من هناك.

- يا سيدي أود أن أتحدث معكم في أمور شخصية.

- تفضلوا أنا أسمعكم.

إيه، لتكن السكرتيرة معهم، فهو سيتحدث معه متجاهلاً السكرتيرة وكأنها لم تكن...

مثل هذا الدور قدم آلاف المرات، وهو الآن سيقدم هذا الدور بعدما أجرى تدريباته خلال الأيام الماضية.. إلا أن الحديث لم يكن

تلك الجمل الخمس التي تدرب عليها خلال الفترة السابقة، إذ إنه بدأ بامتداح حب رجل الأعمال للمسرح، إلا أن هذا الامتداح لم ينته حتى يبدأ بموضوعه الأساسي، وبينما كان يتحدث راح ينظر إلى رجل الأعمال ذاك الذي التقاه داخل السيارة في تلك الليلة مع ثلاث فتيات يشبهن الدمى الزجاجية، لكن ذلك الرجل كان أسمن قليلاً، قد يكون نحف قليلاً، ويبدو أطول من ذلك الذي رآه، فعندما ينحف الإنسان تبدو قامته أطول. على كلٍ شاهده داخل السيارة ليلاً ويومها لم يمعن النظر فيه جيداً...

امتدحه، وبالغ كثيراً في امتداحه متجاوزاً بذلك النص، وكلما امتدحه كان الرجل الجالس خلف الطاولة يعتصر خجلاً.

و في النهاية بدأ بموضوعه الأساسي، حسب مشروعه كان عليه تلخيص مجمل وضعه بجملتين قصيرتين، أما الآن فراح يشرح بإسهاب ممل. على الرغم من أنه لم يكن يحب التوسل والترجي، لكن على ما يبدو فإنه قد بدأ بذلك، كان من المفترض أن يشرح وضعه بوضوح تام، اغرورقت عينا رجل الأعمال فكاد يبكي، هذا يعني أنه نجح في تقديم دوره، فمع ذلك لم يكن مسروراً من نفسه. حسناً، سيعطيه الرجل على ما يبدو لكن كم سيعطيه؟..

استقام رجل الأعمال في جلسته، ثم قطع حديث الممثل قائلاً:

- عذراً، لم أعرفكم بنفسي.

- أرجوك يا سيدي، هل هناك من لا يعرفك، خاصة وأننا سبق أن تعارفنا، ألم يتم ذلك ذات ليلة داخل السيارة؟

- أنا يا سيدي المستشار الخاص لرجل الأعمال، طلبتم موعداً للقائه وهو أمرني أن ألتقي بكم.

صُدِمَ صاحبنا، إذ إنه تعرض للحظة خوف وتوجس كتلك التي يواجهها بعض الممثلين في أثناء التمثيل. في هذه الأثناء سمع صوت كركرة، هل السكرتيرة هي التي كانت تضحك مكركرة؟..

لم يلتفت نحو تلك الفتاة، استمر توقفه للحظات، ثم بدأ ثانيةً، كان من المفروض عليه الاستمرار في تقديم دوره دون ارتباك، تابع دوره وكأنه جالس أمام رجل الأعمال. وبعدما شرح وضعه وأخبره أنه قَدمَ طلباً لمساعدة صغيرة، وأنه سيسدد ديونه خلال فترة قصيرة.

قال له المستشار:

- يا سيدي سأعرض عليه جميع طلباتكم، وثقوا تماماً بأنني سأعمل كل ما في وسعي من أجل ذلك.

و بعد ذلك لم يعد أمام الفنان ما يفعله وكانت كل رغبته أن يخرج مباشرة، تماماً مثل رغبة الفنان الذي يؤدي دوراً فاشلاً..

خرج بعدما شد على يد المستشار مبدياً له فائق الاحترام وجزيل الشكر.

بدا الطريق إلى بيته طويلاً برغم أنه رغب في أن يتحول إلى طير كي يطير ويصل إلى بيته ليعلم زوجته بما حصل.

كانت زوجته تشرب الشاي عندما انفجر مقهقهاً، بينما راحت تمطره بالأسئلة:

- ماذا جرى؟..ماذا قال؟.. هل استطعت أن تقابله؟..هيا حدثني يا روحي!.

بينما راح الفنان القدير يضحك بطريقة جعلته عاجزاً عن الشرح، كان يحاول أن يشرح لها ما حدث وهو يقهقه بكلمات متقطعة.

- شـيء غير معقـول يا حلوتـي... كنـت أحدثـه علـى أنـه هـو.. كم من المرات كررت ما كنت سأقوله حتـى أننـي حفظتـه عـن ظـهر قلب... كنت أظن أنني أشـرح لـه، وإذا بـي أشـرح لمستشـاره... وعندمـا عرفت الموقف تابعت دون أي ارتباك...

كان يضحك بشدة حتى أن الدموع أخذت تسيل من عينيه..

فكرت زوجته بينها وبـين نفسـها "إنـه يلعـب أفضـل أدواره"، ثـم راحت تضحك هي أيضاً...

راحـا يضحكـان بشـدة ودموعهما تنـهمر مـن أعينـهما، كانـا يضحكـان كلاهما، وكـان كل منهما يخفي بكـاءه عن الآخر.

قال لها الفنان:

- لكن أتدرين؟ ما حدث هو شيء حسن.

- لماذا؟..

- مثلما قلتِ، على كل الأحوال إن لم يمنحني فسأكون قد استرحت من هذا الهم والتفكير.

كانت الزوجة تقهقه، وكان زوجها يتحدث بسخرية بالغة، ثـم أسند الفنان رأسه إلى طرف الأريكة، وأجهش بالبكـاء وهـو يرتعـش بشدة.

المفسد بحاجة للعتابا

أمضينا ذلك الشتاء بصعوبة بالغة، توفي رضيعنا ذو الثمانية أشهر. لم مات؟.. عرفنا السبب بعد قدومنا إلى ألمانيا.. أيعقل ألا يموت طفل عندما تنعدم العناية الصحية، لا طبيب، لا دواء ولا علاج، بلى يموت.. لم يكن ابننا هو الوحيد الذي توفي آنذاك.. في ذلك الشتاء حصدت جائحة أطفال القرية.. شكرا لله فقد سلم طفلانا منها، وكان أحدهما في الحادية عشرة من العمر والثاني في التاسعة.

أمضينا فصل الشتاء، ولكن كيف أمضيناه، نحن، والله الوحيدون العارفون بذلك، أمضيناه مرتجفين تحت أسمال رثة.

راحت زوجتي "تنق" علي مع بداية الصيف "اذهب يا رجل إلى استنبول أو أنقرة واعمل هناك وإلا سنموت جوعا"

ولك، نساء العالم يتوسلن كي لا يتغرب أزواجهن، بينما تلح زوجتي علي في ذلك. رحت أضربها، وتحت الضرب كانت تبكي وتتوسل قائلة: "تجد عملا هناك ثم تأخذنا، وإلا سنفنى جميعنا هنا"، هي تتذمر وأنا أضربها، ماذا بوسعي أن أفعل؟ فهي الوحيدة التي أستطيع التصرف معها على هذا النحو، لأنها زوجتي، أما غيرها فلا... لم أكن أستطيع إقناعها بالعدول عن رأيها مهما ضربتها، لأنها تجهش بالبكاء. وفي الوقت نفسه تلح علي قائلة:

- اذهب وابحث عن عمل واشتغل

حتى لو قتلتها من كثرة الضرب فلن تقول غير ذلك.

إذا أردت الحقيقة يا سيدي، فزوجتي على حق فيما تقول، كيف لك أن تعيش إن كنت لا تملك في قرية قطعة أرض ولا أي مورد تعيش منه، حتى من أيام والدي لم نكن نملك أي شيء، لكن والدي كان ماهراً في تسويق الحيوانات، كان يكسب قوته من بيع الحيوانات وشرائها، يبيع هذا بقرات ذاك، وحمار وحصان هذا لذاك، وفي نفس الوقت يشتري لنفسه أربعة أو خمسة رؤوس ماشية.

من نظرة واحدة كان يعرف الحيوانات، عمرها، وحالتها الصحية، تدر الحليب أم لا، كان يعرف مباشرةً إن كانت ستسمن وتكتنز لحماً أم لا.

حاول المرحوم كثيراً أن يعلمني هذه المهنة، إلا أنني فشلت ولم أتعلمها. وبعد وفاة والدي عملت فترة من الزمن في رعي مواشي القرية، وبعد ذلك عملت فترة أخرى أجيراً زراعياً عند بعض القرويين.

و بعد زواجي بدأت بالعمل مناصفة وكل هدفي أن أمتلك خمسة أو عشرة دونمات، وزوجاً من الثيران، لكن، من أين؟... فالأراضي التي فلحتها وزرعتها، تلفت محاصيلها إما من القحط أو من السيول.

و في النهاية وجدت زوجتي على حق.. لذلك بعت كل ما لدي واستدنت ما تبقى من مصروف الطريق واتجهت إلى استنبول.. وأنت تعرف أفضل مني يا سيدي إلى أي حال من الجنون وصل إليه الناس بالجملة هناك. ازدحام وفوضى وكأنه يوم الحشر. لو قلت لك إنها مثل سوق محلتنا أو سوقها المركزي لكنت مجانباً للحقيقة، وكأنهم مجانين في تلك الأسواق، تجدهم يركضون وكأنهم في حلبة للركض أو مضمار سباق أو ميدان للمطاردة، لكن من يهرب ممن،

أو من يطارد من، فهذا غير معروف. تجد من يركض في المقدمة يطارده ذلك الذي خلفه، وكأنهم يركضون إلى مكان ما، ولكن إلى أي مكان فهذا غير معروف أيضاً. مشهد متداخل ما بين هذا الذي يرتطم بذاك، وذلك الذي ينطح الآخر، هذا يسقط والآخر ينهض، وثالث يتزلج ورابع يتدحرج، وذاك على وشك السقوط وآخر يتعثر ويهم بالوقوع. لا أراك الله مكروهاً فلو وقعت على الأرض لوجدت الجميع يدوسونك ولا أحد منهم ينظر إلى الخلف ولما وجدت من يشفق عليك.

ولك، إلى أين أنا أتيت وأية استنبول هذه؟. أحدهم يلكزك من الخلف وإذا ما ألتفت ناظراً إلى الخلف مستنكراً وجدت الآخر يصدمك من اليسار ويصرخ ويقول "ولك يا دب"، وإذا ما التفت يساراً لترى من ذلك الذي شتمك وجدت من يدفعك من اليمين ويقول "يا أحمق" وعندما تحاول النظر إلى عديم الشرف الذي ينعتك بالحماقة تجد من يلكمك في خاصرتك. وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة تجد من دفعك أو لكزك وهم يصرخون:

- ليس ثمة غير هذه الاستنبول يا دب؟
- امش مثل البشر يا أحمق!
- أنظر أمامك وخلفك يا ثور!
- لمَ تقف؟ امش أيها الجلف!

تخليت عن البحث عن عمل وقلت في نفسي لأبحث عن مكان هادئ وأخرج من بين هؤلاء المعتوهين، ولأعد إلى القرية، وكيف سأتخلص من هؤلاء الناس المفسدين؟.

و كـأن ارتطـام البشـر وتدافعـهم وتناطحـهم لا يكفينـا ، فالسيارات زادت الطينة بلة فعندما تهرب من البشر ترتطم بالسيارات وعندما تهرب من السيارات ترتطم بالبشر، سائقو السيارات أسوأ تجدهم يصرخون وأبواق سياراتهم تشق السماء:

- ولك انتبه أمامك يا شيخ الجلفين ...

- لست مهتماً فيما لو دهستك تحت سيارتي، لكن ما أخشاه أن يعتبروك رجلا ويحاسبوني على ذلك.

أينما ركضت تجد المشهد ذاته، من يركض ومن يطارد؟..و أنا أيضاً يجب أن أركض مثلهم.. لكن الجميع لا يركض في الاتجاه نفسه، أخذت أشعر بدوار في رأسي، شرارات أخذت تتطاير أمام عيني، رحت أشعر بالغثيان فتماسكت كي لا أتقيأ.

عندما أخذت أرفرف بكلتا يدي كي أتخلص من هذا الموقف سمعت صوتاً ناعماً مثل صوت البنات:

- و لك يا جلف، ما بك تنتفض على هذا النحو أم ظننت نفسك في مرعى ترعى فيه قطعانك؟.. امش يا نَوَري.

أنظر إليه وإذا به ولد لا هيئة له ولا منظر، ضعيف مثل الصوص لو أمسكت به وعصرته بين أصابعي لأزهقت روحه وأخرجت كبده من فمه وأحشاءه من قدميه... هززت رأسي وتابعت المسير وإذا به يصرخ عالياً:

- لمَ تحدق بي؟..

لو هجمت عليه لعاروني به واستهزؤوا بي وهو الولد الصغير.

لكن عندما شتمني قائلاً » ولك دب ابن الدب « لم استطع

تمالك أعصابي فهجمت عليه وأنا أردد الله الله. لكن يا سيدي، أي بلاء حل على رأسي؟ لقد هجم الولد عليّ وكأنه ديك مخصص للعراك فلكمني على أنفي! وعلى أثرها انفجر الدم! ماذا ينفع توتري عندما رأيت الدم النازف ـ فالولد مثل البذرة لا يمكنني الإمساك به، يندفع ويضرب ثم يبتعد. شج جبيني وغطى الدم وجهي وعيني. أما قلت إنني لو أمسكت به لفركته وسحقته مثل القملة، لكن الولد المنحط لا يُمسَك. وعندما كنت على وشك السقوط لكمني بيسراه ويمناه وابتعد. ولك يا عديم الدين والإيمان! تصور يا سيدي إنني أضرب، ويضربني ولد صغيرا، صحيح أنه ولد صغير لكنه مثل القملة، انتهيت، مت، » ولك حتى لو قلت له كفى، كفى أيها المنحط كفى « إلا أنه على ما يبدو لن يتوقف. كان يضربني ويصرخ قائلا » أيها الجلف، أيها الحقير « ثم يلكمني. من أين ابتليت بهذا البلاء، لم أستطع الخلاص من بين يديه. وأنا لست ممن يختبئون يا سيدي، ومن شدة غضبي رحت أبكي فمن عيني تنهمر الدموع ومن أنفي وجبيني يسيل الدم، واختلط لعابي بمخاطي. رحت أركض لعلي أنقذ نفسي.. لكنهم لم يتركوني لم يكن وحده بل جميع من كان هناك راحوا يركضون خلفي وهم يصرخون:

- يوووه ... يوووه يا دب، يا جلف.

شكرا لله أنهم فقدوا أثري بعدما دخلت في حشد من البشر. آه يا استنبول آه!!!.. قاتلك الله وجعل منازلك خرابا يا استنبول.

وبرغم أنني بقيت فيها عدة أيام وأنا أبرر لنفسي، أيعقل أنني دخلت معرض استنبول في يومي الأول، إلا أن أحداث الأيام كانت ذاتها ...

طلبت من أبناء قريتي أن يبحثوا لي عن عمل، لكن بعضهم كان عاطلاً عن العمل منذ أشهر وبعضهم منذ سنة وهم يبحثون عن فرصة للعمل وأين تلك الفرصة؟..

يقولون إن الألمان بحاجة لأيدٍ عاملة، شريطة أن تكون من النساء، ولك ما هؤلاء الألمان، وأية عقلية،.. ماذا؟!!.. قال يطلبون نساء للعمل ولك أتصلح المرأة للعمل؟.. لماذا لأن أجورهن قليلة أولاً وثانياً إن النساء مطيعات، لينات الرأس..

و في النهاية لم أجد أمامي سوى العودة إلى القرية، فلما عدت إليها وجدت زوجتي ليست كما عهدتها، تنهرني باستمرار وفي نفس الوقت تتزلف وتتوسل ليل نهار، وعندما بحثت لمعرفة سبب تخلخل توازنها، علمت أن إحدى قريباتها تعمل في ألمانيا وقد عادت إلى مدينتها في إجازة، استطاعت إقناع زوجتي بالعمل هناك قائلة "ولك أيعقل أن تتحملي هذه الرذالة هنا، هيا بنا إلى ألمانيا كي تعرفي إنسانيتك" أقنعتها بهذه الفكرة حتى أنها بدأت تعد ما يلزم لذهابها للعمل في ألمانيا، وتوسلت إليها كي لا تذهب، ولكنها لم تعدل عن رغبتها قالت لي أن أذهب أولاً ولتلحق بي، فقلت لها إياك وإلا طلقتك، أجابتني قائلة "يا عزيزي هذا اليوم هو الأنسب" فشعرت تماماً أن زوجتي فقدت صوابها، وأن لا أحد يستطيع ثنيها عن قرار السفر.

أنهت كل الإجراءات ووضعت الأطفال عند إحدى قريباتها بعدما أقنعتها بأنها سترسل إليها بعض النقود من ألمانيا.

تسلمت أول رسالة بعد شهرين من سفرها، وهي تقول فيها "عندما قدمت إلى ألمانيا عرفت أنني إنسان". فالعاملات هنا يمكنهن دعوة أزواجهن عندما يرغبن، لأن فرص العمل كثيرة، تأتي وتجد لك

عملاً، وفيما بعد نجلب الأولاد، حولت لك عبر البنك خمسمئة مارك ألماني، هيا تعال كي تعمل هنا.

ولك برافو يا زوجتي، لا يوجد مثلها، امرأة متميزة، أخت الرجال، بل هي أرجل الرجال لا يمكن أن يكون ثمة مثل زوجتي. لكن ماذا يعني هذا المبلغ؟.. بالقياس إلى عملتنا فهذا مبلغ كبير، رحت أتجول في القرية حسب رغبتي، أصرف ولا أحد يعكر صفوي.

أرسلت زوجتي أوراق الدعوة، وأتممت الإجراءات، لكن عندما اتجهت إلى الطبيب الخاص بالسفارة الألمانية في استنبول، راح الطبيب يفحصنا كل عشرة أشخاص دفعة واحدة، والمترجم يترجم طلبات الطبيب: هيا اخلعوا جميع ملابسكم ولتبقوا بالسروايل فقط، خلعنا ملابسنا، التفتوا إلى الوراء وأديروا ظهوركم، أدرنا له ظهورنا. هيا اخلعوا سراويلكم... استغفر الله ما هذا الطلب المخجل؟.. نعم خلعنا سراويلنا، لكن ألم يقل لنا هيا قرفصوا؟ بلى.. فقرفصنا.

- ما هذا الطلب يا صديقي؟.. هذا يعني أن الألمان ليسوا بحاجة إلى مثل هؤلاء، كن كيفما شئت فالمهم أن تكون قادراً على العمل لديهم، وراح الطبيب يفحص أدبارنا هل فيها بواسير، هل فيها نزف؟ لأن المصاب بالباسور أو الناسور لا يعمل جيداً.

و هكذا فحصوا أدبارنا، ثم طلب منا الاستدارة "هيا التفتوا إلى الأمام وافتحوا أفواهكم" فتحنا أفواهنا، راح الطبيب يفحص فمي بعناية ثم أخذ يتكلم إلى المترجم ليقوم هو بترجمة حديثه "على هذه الحالة لن تستطيع العمل في ألمانيا، هيا اذهب وأصلح أسنانك، ثم عد إلينا. إيه وماذا بعد ذلك؟..

أتدري ما خطر على بالي؟.. هؤلاء فحصونا مقرفصين، هل يا ترى فحصوا النساء بهذه الطريقة؟.. استغفر الله.. انعدمت الأخلاق يا صاحبي.. من خجلي لم أتجرأ على الاستفسار من أحد. فكرت في قرارة نفسي وأقنعت نفسي أن النساء فحصتهن من قبل طبيبات.

كتبت رسالة لزوجتي قلت فيها إن وضعي السفلي جيد، غير أن أسناني بحاجة إلى إصلاح لذلك أرسلي إلي من هذه الماركات الألمانية، وأرسلت لي المطلوب فعلاً، وأصلحت كل أسناني، وهكذا صرت صالحاً من الأعلى والأسفل، وأنهيت كل الإجراءات، وثم ركبت القطار متجهاً إلى ألمانيا.

نزلت من القطار.. وأي ازدحام! لكأنه يوم القيامة!.. عندما تراسلنا أنا وزوجتي أعلمتني أنها ستنتظرني.. ولكنني لم أجدها هناك.. بحثت عنها فلم أجدها.. وفي أثناء ذلك إذا بامرأة شقراء تقترب مني وتحتضنني قائلة:

- ما بك تتلفت يا "رجّال"؟.

فلما قلت لها:

- أبحث عن زوجتي.

أطلقت ضحكة مجلجلة وكأنها ابنة منطقتنا.

أفقت من ذهولي وعرفتها من صوتها عندما قالت "ما بك ألم تعرفني وأنا التي عرفتك مباشرة؟ أيعقل أن تنساني خلال سنة واحدة؟ لا أستطيع القول إنها لا تشبه زوجتي التي أعرفها، بل هناك بعض الشبه. رغم هذا التشابه البسيط فقد غايرت زوجتي تلك التي أعرفها، تخلت عن سراولها الريفي وانتعلت الحذاء ذا الكعب العالي وارتدت

الجوارب الشفافة، عارية الساعدين كاشفة الصدر، وقصت شعرها وصبغته باللون الأشقر.

- لو لم تعرفيني عن نفسك لما عرفتك.

لكن ألم تحتضني وتقبلني وسط الناس؟

قلت لها وأنا أدفعها إلى الوراء:

- على رسلك يا امرأة.. توقفي.. ما هذا الذي تفعلينه؟ ...

- يا رجال أنت لست في القرية، هنا القبل والتقبيل أمر عادي، هنا الرجال والنساء يقبلون بعضهم بعضاً مثل طير الحمام، ويزقزقون مثل العصافير.. ومن المعيب ألا نفعل ذلك، ثم اندفعت ثانية، وراحت تحتضنني وأسندت شفتيها إلى فمي لتقبلني قبلة طويلة.. ترى أليس هذا عيباً حسب رأيها؟..

حملنا الحقائب ومشينا، وضعت قدمي على درج سلم متحرك، ويا للغرابة! أنت تقف في مكانك وهو يرفعك إلى الأعلى:

- ولك ما هذا يا امرأة؟..

- انتظر، هذا ليس بالشيء العجيب!

وما كدت ألحق أن أقول لها:

- ولك امسكيني سأسقط

حتى تدحرج من على السلم، وسقطت في مكان وتبعثرت حقائبي في مكان آخر.. راحت زوجتي تضحك مقهقة. اقتربنا من مكان زجاجي، لا أدري هل اخترقت الجدار الزجاجي أم انشق الزجاج ودخلت ذلك المكان، ومن خلفها دنوت فإذا بالجدار الزجاجي ينفتح تلقائياً! ألم يكن هذا الجدار هو بوابة زجاجية تُفتح آلياً. الله

اللـه!، عرفت أن السلم يتحرك تلقائياً، ولكـن كيـف يعـي الزجـاج قدومي وينفتح تلقائياً؟.

- ولك يا امرأة، ما هذا الشيء؟.

- انتظر، الآن لأنك لم تشاهد بعد شيئاً ذا بال.

اعترضني جدار زجاجي آخر، تابعت مسيري معتقداً أن هـذا الجدار سينشق أيضاً، وإذا برأسي يرتطم بلوح الزجاج:

- ولك يا امرأة لمَ لم ينفتح؟.

- ألم تلاحظ أنه ليس باباً؟..

قلت لها عندما عطشت كثيراً فشعرت أن أحشائي تلتهب:

- و لك ألا يوجد ماء هنا؟.

- أيعقل ذلك؟

أجهزة كبيرة بأزرار مصففة. وضعت زوجتي قطعة نقدية ألمانية في فتحة الجهاز وضغطت على أحد الأزرار ثم أخذت كأساً مملوءاً بالماء من داخل ذلك الجهاز، وقدمته لي ومن ثم أخذت كأساً لها:

- و لك كيف ذلك!؟!!.

- من المعيب هنا شرب الماء، ولذلك سنشرب البيرة.

ثم وضعت قطعة نقدية في جهاز آخر وأخرجت منه لفافة.

- و ما هذه؟..

تفوهت بكلمة لم أفهمها في وقتها، وعرفت فيما بعد أنها "بريزفاتيف".

- وماذا يعني؟.

- ستستخدمه أنت فيما بعد.

- و أين سأستخدمها؟.

- عندما نذهب إلى البيت.

كانت تسير أمامي، عندما شاهدتها من الخلف فاستغربت من مشيتها! كانت تسير ساق إلى هنا والأخرى إلى الطرف الآخر، فصحت عليها:

- و لك يا عديمة الإيمان ما هذه المشية؟.

- أسير مثل الجميع، شاهدتهم يسيرون بهذه الطريقة، وهكذا رحت أقلد مشيتهم.

ركبنا سيارة ووصلنا إلى البيت، فشُدهت من هذا البيت، إنه يشبه بيوت الباشوات الذين نعرفهم.

- و لك هل هذا بيتنا؟.

- نعم بيتنا، هذا براد، وهذه غسالة، وهذه مكنسة كهربائية، وهذه آلة للجلي، وهذا مذياع وذاك تلفاز.

و عندما هممت بالجلوس شاهدت شيئاً:

- و ما هذه؟.

- آلة تجفيف الشعر.

- ماذا يعني؟.

- أجفف شعري بعد الاستحمام، هيا ادخل الحمام لتستحم.

ولكن أي حمام يا روحي، لو لم تساعدني زوجتي لما استطعت الاستحمام!

جهزت زوجتي مائدة الطعام، وملأت الكؤوس بالنبيذ، ثم جلست قبالتي لفت ساقاً على ساق ووضعت سيجارة في فمها، لكني استغربت كثيراً عندما قالت لي:

- هيا أشعل لي السيجارة.

- ولك أتدخنين أيضاً؟.

- الجميع هنا يدخنون، وأنا أدمنت على التدخين.

بعدما أكلنا وشربنا دخلنا غرفة النوم، تمددنا على السرير، فأخرجت تلك العلبة التي أخذتها من ذلك الجهاز وقالت:

- هيا استخدمه.

- و لك كيف أستخدمه؟

شرحت لي طريقة الاستخدام.

قلت لها:

- ولك ما الضرر الناجم عن الطريقة التي نعرفها حتى نستخدم هذه الطريقة الآلية؟.

قالت إنها لم تلتقط روحها من الطرقات وإنها غير مستعدة لتزهقها، وإنها كادت تموت من كثرة عمليات الإجهاض، لذلك لابد أن تستخدم موانع الحمل، وهي إما أدوية وإما عوازل مطاطية، فأما الأدوية فلها محذورات عدة على صحة المرأة. نفذت رغبتها وفعلت ما أشارت إليه وطلبت، لكن بعدما خبت رغبتي في ذلك، وفشلت في إيقاد جذوة رجولتي.. إيه!!!.. ما العمل؟.. انزعجت كثيراً من هذا الموقف، مما أدى إلى تعكر مزاجي.

- و لك يا امرأة - قلت لها - لن أستطيع الاعتياد على ذلك هيا لنعد إلى قريتنا.

- على رسلك.. ستعتاد ذلك مع مرور الزمن.

ماذا تقول يا سيدي، حقيقة إن زوجتي كانت على حق، شكراً

لله أنني اعتدت على الطبائع الألمانية، و وجدت عملاً في أحد المصانع، يعمل فيه عشرة آلاف شخص، لا أحد منهم يعرف ما ينتجه هذا المصنع، ولك أيعقل أن يعمل المرء في مكان لا يعرف ما ينتجه، وما هي استخداماته؟ هكذا لا أحد يعرف هنا، لكن لم لا يعرف فهذا ما عرفته فيما بعد.

مصنعنا هذا ينتج كل شيء لكل شيء، كيف؟.. أشياء للسيارات والبرادات والمراكب البحرية

و التلفزيونات والغسالات، أي ينتج قطع الغيار لكل الأشياء. أو لنقل هو مصنع قطع.. ليس ثمة نوع من القطع لا يصنع فيه.

هناك ما يسمى عامل خط إنتاج، وأنا عملت على خط الإنتاج، ففي ألمانيا هذه كل شيء يتم آلياً وتلقائياً، السلالم تسير وحدها والأبواب كذلك، والأجهزة تعطي البيرة وحدها، وعوازل مطاطية أيضاً، شوكولا كذلك. وخطوط الإنتاج هنا تسير وتتحرك لوحدها أمام الإنسان، على خط الإنتاج هذا وكل عشر دقائق يمر أنبوب معدني، مهمتي إزالة الزوائد المتشكلة عليه وإعادته على السير، وإذا لم أزل العوالق بشكل جيد يتوقف السير لوحده ويلقي الأنبوب إلى خارجه، يمكنك أن تتلاعب على أي شخص لكن لو مت لن تستطيع التلاعب على تلك الآلة، هكذا كان علي إزالة العوالق كل عشرة دقائق، هذا يعني يجب إنجاز المهمة خلال تلك الفترة وإذا فستأتيك قطعة ثانية، أربع ساعات عمل قبل الظهر وأربع بعد الظهر. على خط السير هنا لا يمكن التوقف، أو أن تلتقط أنفاسك ولا يمكن أن تقول للآلة توقفي علي الذهاب إلى المرحاض. استصعبت العمل في البداية، وفيما بعد اعتدت عليه، هناك مسألة أخرى في هذا المصنع الألماني،

عندما نبدأ بالعمل يبدأ بث الموسيقى والأغاني عند فترة الغداء يتوقف البث تلقائياً ليعود ثانية عند بدء العمل بعد الظهر وهكذا حتى المساء ليرضى الله عن هذا المعلم الألماني كم هو إنسان جيد، تصور أنه يفكر في كل شيء حتى في أن يسمعنا الموسيقى والأغاني، عندما يبدأ بث أغانينا وموسيقانا تجدنا نعمل ونحن نرقص مسرورين، وكذلك مكان عمل زوجتي مجهز بالموسيقى، والموسيقى كانت السبب في تغيير مشية زوجتي، وهذا ما عرفته فيما بعد. ليست زوجتي فحسب، فالنساء الأخريات هنا اعتدن العمل وهن يرقصن ويتحركن.

هكذا يا سيدي، الحمد لله استطعنا التأقلم مع الوضع وجلبنا الأطفال، زوجتي تحصل على ألف وخمسمئة مارك ألماني شهرياً وأنا أحصل على ألف ومائتين.. يمكن القول بأنني بدأت أفك الحرف في اللغة الألمانية حتى أنني بدأت أتحدث ببعض الكلمات بالألمانية مثل "بيريفات وكيرناك، دانكشن وزيرشون"، ولو كنت أستطيع الابتعاد عن سير الإنتاج لتعلمت أكثر من ذلك، ولكنني لا أستطيع. ولدانا يكبران، والعمل جيد، والأمور تسير على ما يرام، أقول إن أشغالنا بقيت تسير على نحو جيد، أقصد إلى حين مجيء حسن الاستنبولي، عند قدومه تغيرت أمورنا، حسن هذا شخص حاذق وجريء، محتال وماكر تجاوز الشيطان في خبثه، رجل لسانه أحلى من العسل.. صاحبناه.. هو في الأصل ليس من استنبول بل من "هوبلي"، ولكنه سكن في استنبول سنوات طويلة لذا كان يعد نفسه استنبولياً، لا يوجد شيء لا يعرفه، يعرف كل شيء، فهو رجل مطلع يجيد القراءة والكتابة، والكتب تتكدس في كل أرجاء بيته. وبما أنه هنا في

ألمانيا منذ مدة طويلة فهو يجيد الألمانية بطلاقة حتى أن معلمنا الألماني لا يتحدث بالألمانية بمثل طلاقته.

صادقنا هذا الرجل، وحدثني عن ماضيه وأنا حدثته عن ماضي، حدثته عن كل شيء، حتى أنني قلت له ما أعلمتكم به عن ذهابي إلى استنبول، وكيف ضربني ذلك الولد الذي لا يتعدى طوله الستة أشبار وكيف هربت منه وعدت إلى القرية، وكيف خطبت زوجتي وأجبرتني على المجيء إلى ألمانيا. وهكذا أصبحنا صَديقَين حميمين. حتى أن العمال الأتراك هناك أخذوا يسدون إلي النصح كي ابتعد عنه:

- حسن الاستنبولي هذا داهية ومحرض كبير، ومخرب كبير، يخرب جميع العلاقات في المعمل الذي يدخله ويقلبه رأساً على عقب وفي النهاية يفصل من العمل، ولو يفصل وحده فليست في الأمر مصيبة، ولكنه يسبب فصل خمسة إلى عشرة عمال استطاع إقناعهم بأفكاره، لم يبق في ألمانيا معمل لم يقحم نفسه فيه ويخربه ويطرد منه، لذلك يا صديقي أحذر على نفسك من صديقك هذا، وإياك أن تقتنع بهذا المحرض المخرب، وإلا ستواجهك المتاعب التي أنت في غنى عنها، ألم يقولوا "قل من صديقك أقل لك من أنت؟"... علينا أن نعلمك وأن ننصحك وعليك الباقي، وأنت تعرف ما ستفعل.

بالله عليك ما هذا المنطق وما هذا الكلام؟ ما يعني هذا؟. ولك، هل أنا حمار حتى اقتنع بمثل هذا الشيء وأخرب بيتي بيدي! واضح أنهم بكلماتهم هذه يهدفون إلى الإيقاع بيني وبين حسن الاستنبولي.

استمرت صحبتي لحسن وكنا معاً بشكل دائم، لأنني كنت أتعلم من كل كلمة يقولها.

ذات يوم قال لي حسن:

- أتدري لماذا استطاع ذلك الولد النحيف ضربك عندما كنت في استنبول؟.

أجبته:

- لا أعرف، لكنني، أتوق إلى معرفة ذلك.

- تعال إذاً معي كي أشرح لك السبب.

ذلك اليوم كان يوم عطلة لكلينا، فذهبنا إلى معملنا وأدخلني إلى قسم فيه آلات ضخمة، وبعد ذلك راح يتحدث إلى رئيس القسم الألماني ببعض الكلمات ومن ثم طلب مني الوقوف إلى جانب إحدى الآلات الضخمة وقال:

- انظر جيداً إلى هذه الآلة الضخمة.

نظرت ملياً إلى أن شعرت بدوار في رأسي، لأن هذه الآلة تحتوي على أكثر من ألف قطعة، الذراع والمحور، مسننات، اسطوانات.. جميع هذه القطع تعمل دون توقف، ثم تابع:

- أفهمت الآن؟.

- لا لم أفهم.

- إذاً ف اسمع ما سأقوله، إن ذلك الولد النحيف الذي ضربك وأوسعك ضرباً ولد وترعرع في استنبول، ولد بين مثل هذه الآلات، شاهد محرك السيارة، عمل في ورشات المحركات، عاش بين الآلات والمحركات، وكما قالوا فإن الإنسان ابن بيئته، والعنب يسود مع

مرور الزمن، ماذا يعني هذا الكلام، الإنسان يشبه البيئة التي ولد وترعرع فيها ويصبح مثلها. انظر إلى ذراع هذه الآلة، انظر جيداً، انظر كيف يتحرك هذا الذراع المعدني باستمرار ويحرك معه المسنن، طاق طيق، تماماً مثل لكمات ذلك الولد التي نزلت على وجهك، ذراع ذلك الولد يشبه تماماً ذراع هذه الآلة. وعندما نتحدث عنك فأنت يا بني ولدت ونشأت وترعرعت خلف الثور الأسود. لا تجيد سوى رعاية هذا الثور ... ماذا بعد؟.. وإضافة إلى أنك مجبول بالتراب الأسود، فإنك لا تعرف غير التراب الأسود. يداك وقدماك متشققتان مثل التراب، ألم يقولوا إن الحصان الأغبر تعرفه إما من طباعه وإما من شكله، وأنت كذلك فقد رافقت الثور الأسود أربعين عاماً، تطبعت بطباع الثور.. وبما أنه ثور فمن الطبيعي ألا يتطبع بطباعك، بل أنت الذي تطبعت. بطباعه، حركاتك بطيئة مثل حركات الثور، تسير بتثاقل مثل الثور، فكما أنت تجيد المصارعة، فالأميركي والأوربي يجيدان الملاكمة، لأنك جبلت بالتراب وصارعته.. أما هم فقد جبلوا مع الآلات وصارعوها، ذراعك مثل يد المجرفة، وأما أيديهم فمثل محور الآلات.. مثلما أنت لا تستطيع أن توقف الآلة لتفتح فمك أو تتثاءب وأنت تعمل خلف سير الإنتاج، ولا تستطيع الذهاب إلى المرحاض، ولا تستطيع أن تطفئ ظمأك بكأس ماء، وليس لديك الوقت كي تحك رأسك، كذلك في مدينة مثل استنبول لا تستطيع التوقف في شوارعها وساحاتها، ولا تستطيع أن تتمشى رافعاً رأسك للهواء، أو تفتح فمك للسماء، وإلا وجدت من يدفعك ويرميك على الأرض ويدوسك ويتابع مسيره، أعرفت الآن لمَ كانوا يصفونك بالثور في استنبول، انظر،

أرأيت خط الإنتاج، أي خـط إنتـاج؟، ستتحول مـع مـرور الزمـن إلـى مـا يشبهه، وستسير بسرعة مثل خط الإنتاج.

انزعجت في البداية من حديثه، لكن عندما فكرت ملياً وجدته محقاً، لم يمض على وجودي في ألمانيا أربعة أعوام حتى أصبحت أشبه خط الإنتاج، ولك لو عملت هنا عشرين عاماً لأصبحت خط إنتاج.

سألته:

- أخي حسن هل تعلمت كل ذلك من الكتب؟.

- لا تتناول الكتب هذه الأمور، ولكنك عندما تفكر في هذه الأمور تفهمها جيداً.

عندما ذهبت إلى العمل في اليوم التالي، رحت أراقب خط الإنتاج الذي يسير أمامي وأقارنه بيدي، كنت غريباً عن كل شيء، ولك هل سأصبح خط إنتاج في هذا المعمل.. عندما عدت مساءً إلى البيت رحت أرمق زوجتي بنظرات استغراب، إذن فحركات زوجتي الراقصة، واهتزازات أعضاء جسدها، يدها و صدرها، طبيعة مشيتها سببها طبيعة عملها، هي تعمل خلف الآلة في المعمل وفي البيت هي وسط مجموعة من الآلات وهكذا أصبحت تشبه الآلة، ثم نظرت إليها من الخلف، ولاحظت أن حركة قدميها تشبه حركة الغسالة الأتوماتيكية. فصحت عليها:

- ولك يا عديمة الضمير، كفاك رقصاً!.

- ولك يا "رجّال"، أجننت، ما هذا الكلام؟.

جننت عندما سمعت ما تفوهت به، لكمتها لكمتين على خديها، ثم ألقيت بها على الأرض، وفي هذه اللحظة تذكرت حديث

حسن، وقلت في نفسي في السابق كنت أصفعها فلم لكمتها هذه المرة؟.. فكرت في ذلك وخلصت إلى نتيجة هي أن ساعدي بدأ يشبه محور الآلة، تركتها وابتعدت عنها متجهاً نحو الغسالة الأتوماتيكية بعدما أخذت قضيباً معدنياً وبدأت بتكسير أسطوانة الغسالة التي تشبه حركتها حركة قدمي زوجتي.

كانت زوجتي تبكي وأنا أرغي وأزبد وأفور مثل الماء المغلي في مبرد السيارة عندما طرق الباب وإذا بحسن هو الطارق!.

أخبرته كيف ولماذا ضربت زوجتي، وكيف كسرت الغسالة، يعني شرحت له مثلما حدثتك.

قال لي:

- يا صديقي، ستخسر كثيراً عندما تعادي الآلة، أية عربة ثور تستطيع أن تحمل أكثر من سيارة نقل؟

و أي حصان يسير أسرع من السيارة؟ الآن أنت انهزمت أمام الغسالة الآلية.

فصرخت بأعلى صوتي:

- كيف انهزمت وأنا الذي حطمت آلة الغسيل وبعثرتها أجزاءً؟

- لقد انهزمت، وأية هزيمة!، كسرت الآلة الجديدة، وغداً ستشتري واحدةً غيرها وستدفع النقود.

لقد حصل ما قاله حسن فعلاً، ففي اليوم التالي ذهبنا واشترينا غسالة جديدة.

- حسناً وماذا سيحصل بعد ذلك يا أخي حسن؟... هل سنذهب ونقف مثل الآلات، زوجتي ترقص مثل الآلة، هل وقعنا أسرى في يدها؟.

- علينا استخدام كل ما هو أرفع من الآلة، لا شك أنها أرفع

منا مستوى، ولكنها بلا عقل، أما نحن فلدينا العقل، وسنستخدمه كي لا نبقى أسرى للآلات.

و كيف سيتم ذلك؟.. حسب قول حسن يتم ذلك بألا ننسى أننا بشر، وكما قال فحتى نعتبر أنفسنا بشراً يجب أن نبحث عن حقوقنا، فالآلة لا تستطيع المطالبة بحقوقها، ولكن كيف نطالب بحقوقنا؟.. أولاً لا بد أن ننضم إلى النقابة..

آه يا سيدي، آه.. لقد قالوا لي، حذروني من هذا الولد الذي فاق في دهائه حتى الشيطان، حذروني وقالوا إياك وإلا فسيقضي عليك، لكن أين المخ الذي يجب أن يفكر، لم أصدقهم، خالفت رأيهم، واقتنعت بكلامه وأصبحت نقابياً في المعمل.

- و ماذا سنفعل الآن يا أخي حسن؟

- الآن ستبحث عن حقوقك.

- وكيف سأبحث؟

- بداية ستُنتَخَب ممثلاً عن العمال.

- لا، رجاءً لا تقل هذا الكلام، كيف سأصبح ممثلاً عن العمال؟!!!.

- ستصبح نعم ستصبح ممثلاً، فنصف عدد العاملين في المعمل من الأتراك وهناك أيضاً عمال يوغسلاف ويونان وعرب.. هناك فقط عشرون بالمائة من الألمان، وهم سيدعمونك أيضاً..

- لم لا تصبح ممثلاً للعمال، فأنت أنسب مني.

- أنا شخص مرفوض وموسوم، وذائع الصيت، عندما أتقدم بذلك أطرد من العمل فوراً.

شرح لي حسن كل شيء بأدق التفاصيل ومع ذلك لم أثب إلى رشدي. وبالفعل أصبحت ممثلاً عن العمال في انتخاب نقابي، لا أستطيع أن أقول إنني انتخبت بجهودي بل بفضل حسن، في البداية نسق الأمور مع العاملين الألمان، وبعد ذلك مع الآخرين. لكن عندما بدأ الحوار مع العاملين الأتراك واجه صعوبات كبيرة، وأية صعوبات!

كنت قد شرحت لك عمل خط الإنتاج الذي أعمل عليه: كل عشر دقائق تصلني أسطوانة معدنية، وأنا بدوري أزيل العوالق بهذه الفترة وأعيدها إلى مكانها، بعدها مباشرة تأتي أسطوانة أخرى، وهكذا أسطوانة كل عشر دقائق، ففي الساعة الواحدة ست أسطوانات هذا يعني أنني أزيل العوالق عن ثمان وأربعين أسطوانة في ثماني ساعات من العمل. خطوط الإنتاج مختلفة، المهمات وسرعاتها يختلف بعضها عن بعض، بعضها أسرع من سرعة خطي، وبعضها أبطأ، وكل خط له مهمته، بعض العمال ينجز ستين إلى سبعين قطعة يومياً.

أصدر رب العمل أمراً يقضي أجوراً إضافية للعمال إذا زادوا من إنتاجهم. ولك انظر إلى هذه الإنسانية، "ربي يوفقهم ويرضى عليهم". وهكذا راح العمال يزيدون عدد القطع المُنتجة، فبينما كنت أنهي في اليوم ثماني وأربعين قطعة رفعتها إلى الخمسين ثم الستين، وبعد ذلك إلى الثمانين ... لذلك رحت أنادي على الفني الألماني المسؤول عن تسريع الخطوط: ولك، سرّع سرّع هذه الخطوط كي نعمل أكثر.. عمالنا الأتراك يأتون في المقدمة. وهكذا ازداد إنتاج مصنعنا ثلاثة إلى أربعة أضعاف، لم يكن مصنعنا هو الوحيد في ذلك بل جميع مصانع

ألمانيا.. ومن كان السبب في ذلك؟.. لا شك أن عمالنا الأتراك هم السبب، حتى أن أحد الوزراء الألمان ظهر على شاشة التلفزيون وراح يمتدح العمال الأتراك طويلاً ويتحدث عنهم وعن جديتهم في العمل.. رحنا ننتفخ مثل الطاووس، بينما كنت أحصل على ألف ومائتي مارك ألماني شهرياً، وبفضل تسريع وتيرة الإنتاج حصلت في الشهر الأول على ألف وخمسمئة مارك ألماني. لذلك كنت أصرخ عالياً بالألماني رئيس الورشة" هيا ارفع السرعة، ارفع السرعة ودع الخيرات تأتينا.

في الشهر التالي قبضت ألف وسبعمائة مارك. وكما تعلم فهذه آلة وليست يد إنسان، لذلك لم أعد أفكر في شيء، كل سمعي وبصري مرتبط بخط الإنتاج، لم أعد أرى سوى الأنابيب التي كانت تجري على سيرها

- ارفع من سرعتها يا معلمي، ارفع!.

و في الشهر التالي قبضت ألفاً وتسعمائة مارك ألماني.

و هكذا أصبحت جميع أمورنا في أحسن حال، إلا أنني وكما تقول زوجتي، كنت أتكلم في نومي "هيا أرسل يا معلمي، دعه يأتني، هيا سرّعه لأكون قربانه"، وأحرك يدي باستمرار وكأنني أعمل في المصنع.

أياً كانت الأسباب، فالعمال الألمان وقفوا ضدنا وأظهروا العداء لنا نحن العمال الأتراك.

قالوا لماذا رفعنا وتيرة عملنا، ولماذا رحت أزيل شوائب أكثر من مائة أنبوب، بينما كنت أنهي ستة وأربعين أنبوباً فقط، الأمور واضحة يا جماعة، فهم مغتاظون ويغارون منا نحن الأتراك، لماذا نحن نعمل

أكثر منهم ونقبض أجوراً أعلى من أجورهم... ولك يا حيوان اعمل أكثر وخذ رواتب أعلى، أليس كذلك يا بك؟..، لكن أن يقف حسن الاستنبولي هذا مع الألمان، أنظر إلى هذه الحالة.

ذات يوم قال لي:

- لنلتق عندما تنهي عملك في المساء.

ذهبنا إلى أحد المطاعم، وبينما كنا نشرب قلت له:

- ولك، أليس لديك إحساس ولك، يا عديم المروءة، ألا تخجل من حالك و نت تقف مع الألمان ضدنا.

سألني لماذا طلبت تسريع حركة السير.

قلت له:

- ليعمل الألمان بهمة أكبر ليقبضوا أكثر... واضح أنهم يغارون منا.

- توقف قليلاً واسمعني جيداً، أتعرف بالحساب؟.

- لا، لا أعرف.

- واضح أنك لا تعرف، فحسب معطيات المصنع، وحسب كتاباتهم، وأقوالهم أن حجم الإنتاج ازداد ثلاث مرات، ماذا يعني لك هذا الشيء؟.. ومن الذي زاد هذا الإنتاج، ألا يعني أن أجورهم يجب أن تزداد ثلاث مرات أيها الأبله؟.. وأنت أحد أولئك الذين رفعوا الإنتاج، في السابق كنت تنهي ثمانية وأربعين أنبوباً في اليوم، وكان راتبك ألفاً ومائتي مارك، وكم يجب أن تقبض إذا ما ارتفع الإنتاج ثلاثة أضعاف؟.. ثلاثة آلف وستمائة مارك أليس كذلك؟.. لذا فكم راتبك الآن؟..

- ألف وتسعمائة مارك ألماني.

- حسناً وماذا عن حقك بالألف وخمسمئة مارك؟..

- لك منشان الله، ألف وتسعمائة مارك ليس بالمبلغ البسيط.

- أما كنت لتشغل عقلك، فلا تصبح عبداً للآلة؟..

- من؟ أنا؟..أنا سأصبح عبداً للآلة.. رجاءً دعك من هذا الحديث..

ليلتها، كنا سنفترق أنا وحسن متخاصمين.

انخفض راتبي في ذلك الشهر إلى الألف وسبعمائة مارك، رغم أنني كنت أعمل بنفس الوتيرة إذ إن يديَّ أصبحتا مثل الآلة.

يومها زرت حسن وسألته:

- ما هذا العمل يا أخي حسن؟..

- أفهمت الآن سبب غضب العمال الألمان منكم؟..

- لا، لم أفهم.

راح يشرح لي قائلاً: عندما بدأنا العمل هنا كان ما يسمى الطاقة الإنتاجية لكل خط إنتاج، أي لنقل إن الآلة التي كنت أعمل عليها طاقتها الإنتاجية اليومية ستة وأربعون أنبوباً، وكل خط إنتاج له طاقته الإنتاجية، فعندما تقوم بإنتاج زائد عن طاقة الآلة يدفعون لك مبلغاً إضافياً لما أنتجت... وعمالنا الأتراك - لكي يقبضوا أجراً أعلى

- يعملون بكل ما في وسعهم ويزيدون من إنتاجهم، وهذا يعني أن العامل لديه القدرة على زيادة إنتاجيته، لذلك يقوم رب العمل بتعديل الطاقة الإنتاجية، وهكذا ارتفعت طاقة آلتي الإنتاجية من ثمان وأربعين قطعة في اليوم إلى ست وخمسين قطعة. في السابق كانوا يدفعون لكل قطعة تنتج فوق الثماني والأربعين قطعة، أما الآن

فيدفعون عن كل قطعة إضافية عن الست والخمسين ... هذا ما أغضب العمال الألمان.

- إيه وما العمل الآن يا أخي حسن؟..

- سنستخدم عقولنا، قريباً سينعقد اجتماع نقابتنا، وأنت ستمثلنا هناك وستتحدث عنا.

- ولك ما هذا الكلام؟ وعن ماذا سأتحدث؟.

- سأقول لك.

- حسناً يا أخي حسن.

حان يوم انعقاد اجتماع النقابة ولغاية اليوم لم يعلمني حسن بما سأقول. في يوم الاجتماع قلت له:

- "دخيلك" يا أخي حسن قل لي عمّ سأتكلم؟..

- أعلمك يا صديقي لكن بشرط واحد هو ألا تعلم أحداً بأنني وجهتك إلى ما ستتحدث به.

- أعدك ...

- سيعمل ممثلو رب العمل على التشبث برأيهم وأنت ستتشبث أكثر، واعلم أن جميع العمال الألمان سيساندونك، من الطبيعي أنهم سيستدرجونك في الحديث كي يعلموا من الذي أوحى لك هذه الأفكار وإذا سيسألونك عن ذلك، فإياك أن تعلمهم بأنني أنا الذي قمت بذلك، وإلا فسيفصلونني من العمل بلا ريب.

- لا تقلق يا أخي حسن.. لكن لم تخبرني إلى الآن بما سأتحدث.

- قل لهم بأننا لا نريد سماع الموسيقا ولا الأغاني أثناء العمل.

حسناً، ولكنني لم أقتنع بما قاله حسن، فالمعلم، عدم المؤاخذة، وزع من أجلنا في كل نواحي المعمل مكبرات للصوت كي يطربنا ويروح عنّا أثناء العمل، فأينما توجهت تسمع غناءً وموسيقى.

- أرجوك يا أخي حسن ما هذا الهراء الذي تتفوه به، ولك تصور ما قيمة الملهى إن كانت بلا غناء؟ حتى الكازينو قيمتها أرخص من قيمة الطنة والرنة، لذلك يا صديقي فالأماكن التي فيها غناء ورقص تكون أفضل من مثيلاتها، ما رأيك أن المعلم يطربنا ويسمعنا الأغاني، ولا يقتطع من رواتبنا شيئاً، حتى الأسطوانات يشتريها من جيبه الخاص "جزاه الله خيراً"، كي نتسلى ونروح عن أنفسنا أثناء العمل، والآن إذا قلنا له لا نريد سماع الأغاني سيسر من ذلك وسيوقف تشغيل آلة لأسطوانات "البيك آب"

- أنت قل لهم الآن، لا نريد سماع الموسيقى لنرى إن كان سيوقفها أم لا؟...

- لكن اشرح لي لم لا نريد سماع الغناء والموسيقى؟..

- لمَ؟.. سأشرحه لك فيما بعد.

بدأ الاجتماع، وعندما جاء دوري في الكلام قلت لا نريد أغاني ولا مغاني ولا حتى موسيقى. مع انتهاء كلامي وكأن قنبلة فرقعت داخل قاعة الاجتماع، لقد استشاط ممثلو رب العمل غضباً وأي غضب، قالوا ما هذا الطرح السخيف؟ أيعقل أن تقدم مثل هذا الطلب مع وجود مطالب أهم مثل مشاكل العمال؟ مشكلة الأجور والصحة؟ والموسيقى والأغاني لا يمكن إيقافها وهي موجودة وستبقى، حتى العمال الأتراك الذين كنت ممثلهم اعترضوا على مطلبي.

"لعب الفأر في عبي" عندما بدأ ممثلو رب العمل بالصراخ والصياح بعدما طلبت إيقاف تشغيل الموسيقى والأغاني، فمن المؤكد أن هدفاً ما وراء ذلك، ولكن ما هو القصد؟ لو كان رب العمل ذكياً لوافق على الفور على طلب العامل، أما ممثلو رب العمل فقد كانوا على العكس تماماً إذ إن إصرارهم كان على تشغيل الموسيقى، وقالوا إنه لا يمكن أن يتم العمل دون تشغيل الموسيقى، أما أنا فأصررت على إيقافها وهكذا قامت القيامة، وفي النهاية لم نتفق، وتم تأجيل الاجتماع إلى مدة عشرة أيام.

دعاني ممثلو رب العمل إلى غرفتهم بعدما انتهى ذاك الاجتماع، فذهبت إليهم. استقبلوني أحسن استقبال، وجوه باشة، كرم ضيافة، واحترام بالغ. بعد ذلك اخذوا باستدراجي في الكلام. من ذاك الذي أوحى إلي فكرة إيقاف تشغيل الموسيقى في أثناء العمل؟، من هو موجهي؟ لم يثقوا بكلامي بتاتاً، حاولت إقناعهم بأنني صاحب تلك الفكرة، كانوا يحاولون أن يقولوا بأنني لست أهلاً لمثل هذا الرأي. ألحوا كثيراً لمعرفة صاحبها، لكني لم أفصح لهم لأنني وعدت حسن بالكتمان.

مساء ذلك اليوم قال لي حسن:

- حاول العمال الأتراك المناوئون لرب العمل التقرب منه، وسيعملون على إزاحتك من تمثيل العمال الأتراك لأنك طلبت إيقاف تشغيل الموسيقى والغناء في أثناء العمل..

- إيه وما العمل الآن يا أخي حسن؟..

- كنا نعرف النتيجة منذ البداية. ستحاول تجديد الطلب،

وتعبر عن اعتذارك لممثلي رب العمل، لكن ستقول لهم بما أن العمال الأتراك هم الأغلبية هنا، وبما أننا لا نفهم أغانيكم، لذا فإننا نرغب في سماع أغاني الميجانا والعتابا التركية والموسيقى التركية. وعندما يوافقون على طلبك هذا مذعنين، ويقولون نعم للأغاني التركية نكون قد لعنا أمهاتهم.

في اليوم التالي، وحسب اقتراح حسن عقدنا اجتماعاً نحن العمال الأتراك. رحت أتحدث في الاجتماع بوصفي ممثلاً عنهم، في بداية كلامي دب ضجيج وصفير في القاعة فكاد زجاج نوافذ القاعة يتحطم، تابعت حديثي كما وجهني حسن:

- يا أصدقائي، يا أخوتي، أبناء وطني، اسمعوني أولاً، من ثم افعلوا ما تشاؤون... أيعقل أننا لا نريد الأغاني البتة؟.. لا يجوز، نعم نريد سماع الموسيقى والأغاني.. ولكن هناك مسألة واحدة ألا وهي أننا نريد سماع الأغاني والموسيقى التركية.. أما ما يسمعوننا من هرطقات أجنبية غير مفهومة، فإنها والله تؤلم الرأس وتوتر الأعصاب.

أخذ كل من كان يصفر مستنكراً يصفق بحرارة حتى شعرنا أن القاعة توشك أن تنهار فوق رؤوسنا.

و من ثم أيد العمال الألمان موقفنا وقالوا بما أن العمال الأتراك هم الأغلبية فاقتراحهم مقبول لدينا، وبما أنهم يطلبون تشغيل أغاني العتابا فليكن.

كل ما جرى شيء رائع، لكنني إلى الآن لم أفهم ما مضمون ذلك، لذلك قال لي حسن:

- سأشرح لك.

- أرجوك افهمني.

- لا يمكن شرح الموضوع بالكلام، لا بد من إجراء بحث فيه!

صديقنا حمدي، صديق مقرب جداً، لديه سيارة، ركبنا سيارته، وجلس حمدي خلف المقود، كان ذلك يوم الأحد. قال لي حسن بصوت منخفض دون أن يسمع حمدي ما يقال:

- انظر يا أخي، سنقوم الآن بتجربة سأضع شرائط التسجيل الآن في البداية سأشغل أولاً الأغاني الأجنبية، ومن ثم أغاني العتابا ركز نظرك في ساعتك وفي عداد السرعة والمسافات ثم راقب تصرفات حمدي عندما يقود سيارته دون تشغيل آلة التسجيل وعندما نشغل الأغاني الأجنبية الصاخبة، وكذلك عندما نشغل العتابا؟.. وكل مرحلة ستكون خمسين كيلو متراً.

عيني على ساعتي وعلى عداد المسافات أولاً بدون تشغيل المسجلة.

سألني حسن بعد الفترة الأولى:

- بكم قطع المسافة؟..

- بثلاثين دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة مئة.

بعد ذلك وضع شريط أغنية أجنبية، وأية أغنية! اعتقد أنها من نوع الروك، يرقص المرء على أنغامها بجنون منقطع النظير، وكلما انتهت واحدة منها وضع الأخرى.

قلت له:

- لقد قطعنا خمسين كيلومتراً.

أوقف جهاز التسجيل وسألني:

- كم الوقت؟.

- عشرون دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة مئة وخمسين.

بدل الكاسيت ووضع أغاني عتابا تركية ومع بدء الأغنية استرخى صاحبنا حمدي خلف المقود وحنى عنقه. وقطعنا مسافة خمسين كيلومتراً على أنغام العتابا التركية.

سألني حسن بعد ذلك:

- بكم من الوقت قطعنا المسافة؟.

- بأربعين دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة ثمانين.

بعد هذه المسافة وضع شريط تسجيل فيه أغانٍ من نوع العتابا الطويلة. وبعد فترة من الزمن أوقفتنا دورية شرطة مرور، وتقدم منا شرطي وقال:

- سرعتكم ستين كيلومتراً في الساعة والسير على "الاوستراد" "بسرعات بطيئة" ممنوع. ونظم ضبط مخالفة.

و هكذا قمنا بهذه التجربة في أثناء ذهابنا إلى المدينة، وكلما كانت الأغاني صاخبة كلما زاد حمدي من سرعة سيارته وعندما وضعنا العتابا، خفض حمدي من سرعته دون أن يدري. فلما وصلنا إلى المدينة قام حسن بشرح التجربة لحمدي، فقال لحمدي مندهشاً:

- يلعن ...، لم أنتبه لما حصل بتاتاً!!.

رد عليه حسن قائلاً:

- حتى لو انتبهت لما غير ذلك من الأمر شيئاً، الآن علمت بما جرى، سنعيد التجربة ثانية أثناء عودتنا.

أعدنا التجربة ثانية

- ليس الأمر بيدي - قال حمدي - عندما أستمع إلى العتابا أشعر بالاسترخاء، آه ما أجملها.

تلك الليلة وقبل أن نفترق قال حسن:

- لنكرر التجربة في بيوتنا.

- كيف؟..

- ليدخل كل واحد منا إلى الحمام، في المرة الأولى دون موسيقا وأغاني، وبعد فترة ندخله على أنغام الأغاني الصاخبة، ثم ندخله والعتابا تصدح في البيت. لنقم بهذه التجربة ونوقت، في أية مرة يستغرق الحمام فترة أطول؟

قمت بتلك التجربة، فعندما وضعت أغنية الروك كنت أغسل جسمي بسرعة وكانت قطعة الصابون تنتقل بسرعة أيضاً في لحظات كنت أنهي اغتسالي وأخرج، أما في أثناء أغنية العتابا، فكنت أسترخي في الحمام وأنتعش من لذة الاغتسال وأنا أغني، وبهدوء تام أنهي حمامي وأخرج.. أوه ما أروع الحمام! لكن بلا موسيقا ولا أغاني كان يستمر حمامي عشرين دقيقة، بينما كان يستمر مع الروك خمس عشرة دقيقة وبالعتابا نصف ساعة.

بعد انتهاء التجربة قال لي حسن:

- أفهمت الآن لم يقوم رب العمل بتشغيل أغاني الروك

والموسيقا الصاخبة أثناء العمل؟.. بالتأكيد لا يقوم بذلك على روح أبيه.

- نعم فهمت.

أتى موعد الاجتماع وطالبنا جميعاً بصوت واحد بأغاني العتابا، وبما أنه لا يعرف ما هي هذه الأغاني وافق مباشرة على مبدأ "بعض الشيء أفضل من لا شيء". في ألمانيا كم هائل من الأشرطة التي لا يوجد مثلها في تركيا، قمنا باختيار الأغاني المرغوب سماعها. بدأت أغاني العتابا تصدح في صالات المعمل، وبسببهاا أصابت عمالنا حالة من الاسترخاء، سعادة ما بعدها سعادة آه ما أجمل العتابا!!!....

بعد فترة لم يعد حسن يظهر.. ماذا جرى له؟ رحنا نستفسر عنه، وإلى أين ذهب وعلمنا فيما بعد أنه فصل من العمل.. ثم وجدوا السبب لسحب إذن العمل منه، فطردوه من ألمانيا ولا أحد يعرف إلى أين غادر.

و بعد ذلك راح كل من كان ينصحني بالابتعاد عنه يقول لي:

-و لك أرأيت؟ هل استوعب "رأسك السميك" لماذا كنا نطلب منك الابتعاد عنه، أ علمت كم هو مفسد.

شعور ما مشوب بالخوف والقلق بات ينتابني.. ماذا لو طردوني من العمل؟ ومن ألمانيا أيضاً؟.

لذلك قلت لهم:

جمعيكم محق بما قلتموه ولم أعرف كم هو مفسد للأمور.

وبعد فترة من بدء إذاعة أغاني العتابا رحت أتوسل إلى رئيس الورشة أن يبطئ سرعة الأغاني..

و هكذا انخفضت وتيرة العمل من تنظيف سبعين أو ثمانين ماسورة في اليوم إلى الخمسين وبصعوبة بالغة بعد ذلك إلى الأربعين،

ـ في بداية عملي كنت أنظف ثمانياً وأربعين والآن أربعين ماسورة، لست أنا الوحيد بل جميع العمال انخفضت انتاجيتهم. ولك، انظروا ماذا فعل بنا هذا المفسد والمخرب، ولك أية مصيبة أوقعها على رؤوسنا وأية حيلة مررها علينا كم هو منحط وسافل وعديم شرف وناموس.

كنا ننظف ماسورة من عوالقها كل عشر دقائق، أما الآن فنقوم بذلك كل عشرين دقيقة، ومع هذا الانخفاض في الإنتاج انخفضت ماركاتنا، كم هو على حق رب العمل؟ ما العمل الآن؟.. تجمعنا عدة أشخاص وتجهنا إلى ممثلي رب العمل وقلنا لهم:

- رجاءً قمنا بما قمنا به ولا تعاملونا بالمثل، نطالب بالأغاني الفرنجية، والأكثر فرنجية وصخباً.

شكراً لله بدأت الأغاني الفرنجية تصدح في صالة العمل وارتفعت أجورنا ثانية، وبذلك ارتفعت الماركات.

من ثم اشتريت سيارة مارسيدس، شكراً لله انفصلت عن زوجتي والآن أعيش مع امرأة ألمانية، تكبرني بخمسة عشر عاماً، لكن هذا الفرق غير واضح فهي فتاة كاملة مكملة... ولو كانت سمينة قليلاً، فهي تبدو امرأتين في واحدة فهذا أفضل، وكلما قلت لها دعينا نتزوج تهريت، لو تزوجت لأصبحت نصف ألماني، ولن يستطيعوا بعد ذلك إخراجي من ألمانيا. إيه ولغتي الألمانية باتت معقولة..

ابني الكبير تزوج من ألمانية وأنجب طفلاً أيضاً وأسموه كيلفاس. ويقول إنه سيصبح رجل أمن، لكن لا أدري هل ينسبونه إلى سلك الأمن أم لا؟ لأنه منذ مدة شارك في عملية نصب آلية.

إيه هكذا يا سيدي، بسبب ذلك المفسد والمخرب كدت أسقط في الهاوية، طردوه من ألمانيا وتخلصنا منه.

خالي جيانغ واو

استشهد والدي في الحرب عندما كنت جنيناً في بطن أمي، لذلك فأنا لا أعرفه بتاتاً، و خالي جيانغ واو شارك في الحرب أيضاً. لذلك عانت أمي وعاشت أياماً عصيبة جداً. وعندما عاد خالي من الحرب كنت في الثالثة، أظن أنه عاد معوقاً وبسبب إعاقته لم يتزوج.

ذات مساء صيفي حار، كانت الشمس تغيب كقرص نحاسي أحمر. عادة كان خالي يمضي في أمسيات الصيف الحارة ساعات طويلة فوق سطح البيت مستظلاً بعريش الياسمين وهو يشرب عرق الأرز. كان عندما ينتشي من شرب العرق يصبح مثل الملك، ولا يرغب أن يزعجه أحد.

كانت أمي قد جهزت له مائدة الشراب، وبينما كان يتأهب للجلوس إلى مائدته بعدما غسل يديه أعلمته أمي عن مجيء الخفير يونغ تشي وأنه راغب بلقائه. صرخ خالي منزعجاً من قدومه في هذه الساعة دون أن يتحرك من مكانه:

-أهلاً وسهلاً تشي، ماذا حصل وماذا تريد؟

الجميع هنا كانوا ينعتونه بالخال مثلي لذلك رد عليه:

-ستأتي إلى المخفر يا واو الخال، يطلبون حضورك إلى هناك.

أجابه خالي:

-حسناً، سآتي غداً.

ابتعد الخفير تشي إلى منتصف الزقاق ورفع رأسه كي يتمكن من مشاهدته:

-ستأتي الآن ولا يمكن التأجيل إلى الغد.

سأله خالي دون أن يعكر صفو مزاجه:

-و لمَ لا يمكن أن آتي غداً في الصباح الباكر؟.

-هكذا قال رئيس المخفر.

-وأنا لا يمكنني الذهاب في هذه الساعة إلى أي مكان، بلغه تحياتي وقل له إنه سيأتي صباح الغد باكراً.

-لا يا خالي واو هذا لا يجوز، سآخذك الآن.

صرخ خالي بأعلى صوته قائلاً:

-لن آتي.

-كيف يعني لن تذهب؟.

-هكذا، كما ترى لن آتي أفهمت، أم لا؟.

صرخ الخفير تشي:

-ستأتي!..

صرخ خالي غاضباً

-لن آتي، وهيا انقلع من هنا.

-ولك، قلت لك ستأتي يعني ستأتي!.

دلق خالي في جوفه عدة رشفات من كأسه دفعة واحدة، ووضع في فمه بعض المازه ثم قال:

-لا أحد يجبرني في مثل هذه الساعة على التحرك من مكاني حتى لو انخلعت الأرض من مكانها.

-انظر يا خالي واو، أنا أعرفك منذ سنوات طويلة، فلا تغضبني.

تجرع خالي من قدحه جرعة أخرى ثم قال:

-إيه، وماذا ستفعل إذا غضبت.

راح جيران ينصتون لحديثهما من أسطح بيوتهم باهتمام وفضول.

-أنت إذاً تعارض خفير الدولة.

نهض الجيران واقفين رغبة في معرفة الموضوع عن كثب، وأخذوا يضحكون عندما سمعوا خالي وهو يقول له:

-ولك، عليك وعلى من عينك خفيراً.. بعدها راح يستخدم شتى أنواع الشتائم القاسية الطويلة من قاموسه.

-إذا كنت رجلاً فأعد ما قلته ثانية...

عندما أعاد خالي شتيمته المدهشة ثانية راح المتواجدون على الأسطح يقهقهون بأصوات عالية، ومن طرافة الموقف راح الخفير تشي يشاطرهم القهقهة. كان خالي الوحيد الذي لم يقهقه معهم.

-هذا يعني أنك ترفض دعوة رئيس الخفر.

ارتشف خالي من قدحه وراح يلوح بقبضته اليمنى بعدما مسح ما علق على شاربيه بقفا يده:

-عليك ... وعلى مفوضك ... وتابع شتائمه.

-هذا يعني أنك ترفض الإمتثال لأوامر الحكومة أليس كذلك؟.

تعالى صخب الجوار بينما كان خالي ينهال عليه بسلسلة من الشتائم حتى أن أحدهم طلب من خالي قائلاً:

-إننا لا نسمعك هنا يا خالي، اصرخ بصوت أعلى كي نسمعك.
-إذاً فأنت تدوس القوانين أيضاً؟..
-ولك، على القوانين.. وعلى من وضع القوانين.

كانت قهقهات الجوار تتعالى باستمرار على أسطح المنازل في تلك الليلة الصيفية الحارة، بعضهم يقهقه ممسكاً ببطنه، وآخر منبطحاً على الأرض من شدة الضحك. إحداهن شقت بصوتها صخب قهقهاتهم قائلة:

-آه يا خالي واو لقد بُلتُ تحتي وبللت سراولي من شدة الضحك، سأفقد وعيي من شدة الضحك يا خالي واو.

كل شتيمة يطلقها خالي لا تشبه سابقتها، وفي كل مرة كان يشتم واحدة جديدة، فلا أحد يستطيع مجاراته في ذلك في كل تايوان.

راح الخفير تشي يستفز خالي، فلم يوفر خالي سبابه على الخفير والمفوض والمخفر وحتى الحكومة و قوانينها، وأية شتائم مقذعة! حتى أن أمي راحت ترتجف خوفاً من شتائمه بينما راح الجوار على الأسطح يصفقون له كلما أطلق شتيمة.

كنت حين ذاك في السابعة عشرة من العمر.

يومها لم يذهب خالي إلى مخفر الشرطة، ولم يعكر مزاجه بتاتاً.

لا أدري لمَ لم يذهب خالي يومها إلى مخفر الشرطة، أهو الخوف أم النسيان؟ لو ذهب لعرفت، لأنني أنا من سيأخذه بيده بسبب عجزه.

مساء اليوم التالي، وبينما كان قرص الشمس النحاسي الأحمر يختفي في المغيب، انتهت أمي من تحضير مائدة خالي، وبعد أن

ارتشف الرشفة الأولى من قدح العرق، سُمع صوت الخفير تشي:

-هيه، يا خالي واو.. عمت مساءً.. هيا ستأتي معي إلى المخفر...

أجابه خالي:

-لن أعكر مزاجي في هذه الساعة يا تشي، ولن أذهب إلى أي مكان.

استمر الحديث في تلك الأمسية كما في الأمسية السابقة تماماً، الخفير تشي يستفز خالي وهو يرد عليه بالشتائم، وقهقهات الجوار تتعالى على الأسطح، شتائم خالي في هذه الأمسية كانت أطول من سابقتها، وفي الليلة الثالثة تكرر الشيء نفسه حتى أن الجوار اعتادوا هذا النوع من التسلية لدرجة فلو تأخر الخفير تشي قليلاً قالوا:

-أين هو؟.. لم تأخر الخفير تشي هذه الليلة.

-لقد تأخر هذا المساء.

-هل نرسل أحداً كي يأتي به؟..

و من يراه قادماً يصفق فرحاً:

-هاهو قد أتى؟..

أخذ بعض الجوار من الأحياء الأخرى بالقدوم إلى حينا كي يستمعوا إلى شتائم خالي وحديثه هو مع الخفير تشي وهكذا تمتلئ الأسطح بالضيوف من تلك الأحياء.

و أخيراً اعتادت أمي، ولم تعد ترتعد خوفاً كالسابق، ولم تعد تبكي، تستمع بصمت، بل إنها أخذت بعض الأحيان تشاركهم في القهقهة لعدم قدرتها على تمالك نفسها.

استمر ذلك لمدة أسبوعين، وكان سيستمر أكثر من ذلك، لو

لم يُخبر أحدهم المخفر عن ذلك، ولم يعرف من هو المخبر، حتى أن الجوار والذين ساءهم هذا الموقف كانوا يقولون "أخ لو نعرف من هو هذا المخبر"، لكن ما عرُف بشكل مؤكد هو أن الخفير تشي لم يقم بذلك، وأنه لم يخبر المفوض عن شتائم خالي أثناء مهمته الرسمية، حتى أنه ذات مساء قدم إلى بيتنا وأعلم خالي بانزعاجه عن هذه الأخبارية وتمنى ألا يُشك فيه في ذلك، بينما كان خالي يحاول تهدئته:

-لا تنزعج بتاتاً يا تشي ولا تهتم، حتى أنه قدم له قدحاً من العرق.

أخذت خالي العاجز إلى مخفر الشرطة، وهناك قال له الخفير الذي يعرفه من قبل:

-أهلاً وسهلاً يا خال، عليك إخبارية أ صحيح ما تناهى إلينا أنك تطاولت على قوانيننا و مسؤولينا وحكومتنا والوالي العام؟ ولم يكن ذلك مرة واحدة بل تكرر ذلك عدة مرات، أ صحيح ذلك يا خالنا واو؟

أجابه خالي:

-يوه ه ه نعم لقد شتمت.

-فكر جيداً وحاول أن تتذكر، بالتأكيد لم تشتم أحداً لأنه لم يسمعك أحد من الجوار.

أجابه خالي مستغرباً:

-أستغرب ذلك كثيراً خاصة أنني سببت بصوتٍ عالٍ سمعه الجميع.

دخل جميع رجال الشرطة غرفة المفوض حالاً عندما علموا

بقدوم خالي، ومن لم يجد منهم مكاناً له في الغرفة وقف في الممر، وراحوا يستمعون إلى ما يقوله خالي من الباب المفتوح.

سأله المفوض:

-إذاً فأعلمنا كيف جرى ذلك؟..

راح خالي بشرح التفاصيل دون أن يغير ما جرى أو يحرفه والمفوض يسأله: وهل شتمت هذا؟

و يجيبه خالي قائلاً:

-نعم شتمته.

-حسناً وكيف شتمته؟.

راح خالي يعيد الشتيمة كما أطلقها أمام المفوض. وبينما كان المفوض يسأله هل شتمت فلاناً؟

وفلاناً؟ وفي بعض الأحيان كان المفوض يذكر بعض أسماء الذين لم يشتمهم وهنا كان خالي يقول للمفوض:

-آه، لقد نسيته.

طلب المفوض من خالي مراجعته في اليوم التالي، وبالفعل أخذته إلى المخفر وهناك تكررت الأمور ثانية كسابقتها تماماً:

-خالي واو هل شتمت فلاناً؟.

- نعم شتمته.

-وكيف شتمته؟

يكرر شتيمته ثانية. وبعد مراجعات استمرت عدة أيام قال المفوض:

-سأحيلك إلى النائب العام.

أخذت خالي إلى النائب العام. بعد دخولنا الغرفة قدم عدة أشخاص، وعلى الأغلب النائب العام والمحقق كانا بينهم، وبعدما قرأ المحقق إفادة خالي التي قدمها في المخفر سأله:

-هيا حدثنا عما جرى.

قام خالي بشرح كل ما جرى ثانية.

-كيف شتمت؟.. هيا أعلمنا ثانية.

استمر استجواب خالي عدة أيام، وفي كل يوم كان يزداد عدد المتجمهرين في الغرفة، وأخيراً أحالوه إلى المحكمة. قام جيراننا بجميع مبلغٍ من المال فيما بينهم واتفقوا مع محام ليدافع عن خالي، وحسبما يروى فإنه من أفضل محامي تايوان. سمعنا أن الخفير تشي ومفوض المخفر ساهما أيضاً في هذا المبلغ. وبعد أن سمع المحامي أقوال خالي تنازل عن جميع أتعابه، وهكذا تم تقديم المبلغ المذكور لخالي.

أخذته يوم الجلسة إلى المحكمة. ولكن أي حشد كان هناك! حتى أن رواق المحكمة كان يضيق عليهم فتوزعوا في الممرات، قدم الجميع رغبة في الاستماع. وعندما علمت أمي أنهم سيوقفونه بعد الجلسة الأولى حزنت كثيراً وراحت تشهق من البكاء مقرفصة جانب الجدار.

و بعدما تثبّت القاضي ذو القسمات القاسية من بطاقة خالي الشخصية أعلمه أنه متهم بالتطاول على المقام المقدس وأشخاص عدة، وسأله عن أقواله:

-هل شتمت؟..

طلب المحامي من خالي مصراً عدم الاعتراف بما نسب إليه،

خاصة أنه لا يوجد من يشهد بذلك، حتى الخفير تشي كان سيقول إنه لم يسمع بذلك. وبسبب سؤال القاضي راح خالي فترة من الزمن يبتلع ريقه، وكأن ثمة شيئاً كبيراً علق في حلقه، وهو يحاول إخراجه جاهداً، ولكنه في النهاية استطاع إخراجه عندما قال:

-نعم شتمت.

ارتفع في قاعة المحكمة صوت صخب وضجيج.

سأله القاضي:

-ومن شتمت، وكيف شتمت؟..

راح خالي يعدد أسماء الذين شتمهم.

انفردت أسارير القاضي، وبدت على وجهه إمارات الراحة، هل شتمت فلاناً؟.. وفلاناً.. رد عليه معترفاً.

-لمَ شتمتهم؟ وماذا قلت؟..

راح خالي وبقوة غير متوقعة قياساً لعمره يكرر الشتائم تماماً كما كان يشتم على السطح وفي مخفر الشرطة وأمام المحقق. أجل القاضي الجلسة القادمة مدة شهرين، ولهذا السبب استمرت جلسات المحكمة مدة طويلة. أخذت خالي بعد شهرين إلى المحكمة. وثانية تكرر نفس الشيء

-هل لديك شهود يثبتون أنك شتمت؟.

أجابه خالي:

-كثيرون من يشهدون على ذلك وفي مقدمتهم الخفير تشي وجميع الجوار لأن ذلك كان في الصيف، وجميعهم كانوا على أسطح منازلهم.

جرت المقابلة بين خالي والخفير تشي كما في المسرح تماماً إذ كررا ما دار بينهما في الليلة الأولى، وفي الجلسات التالية تمت دعوة

الجوار كشهود، وهكذا راحت فترة محاكمته تطول. حتى أن ذلك المحامي المشهور كان يستغرب ذلك ويعبر عن عدم فهمه لأسباب إطالة مدة المحاكمة.

استمرت محاكمة خالي أكثر من سنتين، ولم تنته لأن ملف القضية طوي وأغلق بسبب صدور عفو عام.

استمر خالي في شرب العرق الذي تقطره أمي من الأرز، صيفاً على السطح وشتاءً في غرفة الموقد.

ذات يوم انقلب خالي وقدح العرق بيده ومات. أقيمت لخالي مراسم جنازة لم تشاهد من قبل إذ شارك فيها جميع أهالي منطقتنا وحتى المناطق القريبة منا، وقد شارك الخفير تشي في تلك المراسم، وكان يبكي بحرقة ومرارة كذلك المفوض وعناصر المخفر، لم أشاهد المحقق الذي أجرى التحقيق مع خالي لكنني رأيت القاضي.

جميع المشاركين كانوا يتذكرون شتائم خالي ويرددنها وأطلقوا عليه لقب أهم الشتامين.

يساري أنت أم يميني؟!!!

ثلاثة أسرة في عنبر المشفى، أحدها شاغر، وعلى الثاني اضطجع شخص ملفلف الوجه والرأس واليدين، من نبرة صوته يبدو أنه شاب في مقتبل العمر، لا شيء غير ذلك يوحي إلى عمر شخص ملفلف ممدد على سرير كالمومياء، فتحتان فقط تظهران فمه وعينه.

شخص آخر في أوسط العمر أدخل المشفى قبل الظهر، لينزل على السرير الثالث.

قال له الشاب الملفلف:

- عافاك الله يا عم.

- سلمت وعوفيت.

-عدم المؤاخذة يا عم، منذ ثلاثة أيام وأنا أدعو إلى ربي أن يرسل إليَّ من يجيد القراءة والكتابة.. هل تجيدهما يا عم؟..

-قليلاً.. لكن لمَ سألت؟..

-لقد أرسلك الله إلى هذا المكان. لقد أُهِنتُ هنا يا عم، كسروا عظامي، وجعلوني أشلاءً ...

راح الشاب يتابع حديثه وبدا من نبرة صوته أنه يبكي ويئن.

-هل تكتب لي رسالة يا عم؟ اكتب لي رسالة كي أعلم أهل قريتي بحالي، ولأقول لهم إنني فقدت إنسانيتي، هاك المغلف والورقة، فقد جهزتهما من قبل ...

-حسناً سأكتبها.

وضع الرجل الورقة والمغلف على المنضدة وأخرج القلم من جيب بيجامته، ثم أمسك الورقة بيده وتهيأ للكتابة بعدما أسند الورقة إلى قطعة من الورق المقوى.

-هيا قل.

راح الشاب يلقنه ما يود كتابته وهو يشهق من البكاء:

-إلى حضرة العزيز المحترم:

روحي مشتاقة لأخي "طوبل عمر" عمر الأعرج.

راح الرجل يدون ما يلقنه الشاب:

-"بداية لا بد من السؤال عنكم وعن صحتكم وعافيتكم متمنياً من الله عز وجل دوام الصحة و العافية".

قال له الرجل:

-برافو "ما أجمل الأفكار التي تطرحونها لكتابة الرسالة".

أجابه الشاب:

-أعرف جيداً طريقة صياغة مقدمة الرسالة وخاتمتها، والسبب في ذلك يا عم هو أنني حفظتهما عن ظهر قلب من كثرة ما قرأت الرسائل أمامي في مقهى القرية، أما عرض الرسالة ومتنها فهو غاية في الصعوبة يا عم. اكتب يا عم من فضلك "وإن جاز حسن سؤالكم عنا، فأحوالنا غاية في السوء، وأنا مرمي أئن متألماً في ركن من أركان المشفى. ونعلل النفس بالأمل ما دامت روحنا في جسدنا وما دمنا على قيد الحياة.

ثم أردف الشاب قائلاً:

-بعد ذلك تبدأ الصعوبة في التلقين يا عم، فأنا في الأيام الماضية

التي قضيتها هنا كنت أفكر كيف ستكون المقدمة حتى حفظتها عن ظهر قلب.

سأله الرجل الملتهف إلى معرفة ما أصاب هذا الشاب قائلاً:

-لمَ الصعوبة؟.

أجابه الشاب:

-هكذا صعبة وحسب، لأنه كما تعرفون، فكل رسالة تحمل موضوعات وأخبار تختلف عن غيرها وبذلك يختلف العرض، لكن هل تستطيع بطريقتك كتابتها يا عم إذا ما شرحت لك ما جرى لي؟..

-لمَ لا؟.. قد أقوم بذلك، هيا أشرح لنرى.

بدأ الشاب الحديث عما جرى له:

-أزف موعد التحاقي بالخدمة العسكرية، وفي العام القادم إذا كان لي نصيب في ذلك، سألتحق بالخدمة العسكرية.. معروف لدينا في القرية أنه من يملك النقود يُسر كثيراً في خدمته، ومن لا يملك يتعب. لذلك لا بد من أن أمتلك بعض النقود قبل بدء الخدمة العسكرية، في أثناء خدمتنا للوطن تلزمنا النقود، يعني ثمن السجائر وما شابه ذلك.. لذلك قلت في نفسي لمَ لا أذهب إلى استنبول تلك الديار المقدسة، لأجد عملاً وأجمع بعض النقود، وبذلك أكون قد كسبت بعض نفقاتي.

و عندما وصلت إلى استنبول، رحت أبحث عن أماكن إقامة أبناء قريتي فعنوانهم مسجل على ورقة، فسألت بعضاً ممن يجيدون القراءة عن المكان والشارع، كذلك بحثت عن المقهى الذي يجلسون و يجتمعون فيه. عرفت فيما بعد أن اسم تلك المنطقة هو "تقسيم"،

وأخيراً وصلت إلى تلك المنطقة المشؤومة، وهناك سألت الرائح والآتي. لا أدري ما سبب احتشاد الناس هناك، لكن أي جمهور، لا تسأل، بقدر سكان ألف قرية مثل قريتنا.

حاولت الخلاص والخروج من داخل تلك الجماهير المجتمعة، لكنني لم استطع، وهكذا احتُبست داخلها كما لو احتبست بين فكي كماشة، حاولت كثيراً لكن دون جدوى، يبدو أن الخروج من داخلها مستحيل، رحت أنجر تحت اندفاع سيل الناس إلى هذا الجانب تارة وإلى ذلك تارة أخرى، حتى وجدت نفسي انجر معهم لأصل إلى مكان ما، وهناك صعد أحدهم مكاناً عالياً ثم راح يصرخ بكل ما أوتي من قوة، وبرغم أن كلامه كان مبهماً وغير مفهوم إلا أن الناس كانت تصفق له باستمرار وتصرخ "تحيا"، وفي تلك اللحظات حصل ما حصل، وإذا كل واحدٍ منهم يطلق ساقيه مسابقاً الريح، يركضون، يركضون بطريقة وكأنه الخلاص، الجميع هناك يركضون، لكن من يركض خلف من؟ هذا ما لم أعرفه، وجدت نفسي، وتحت ضغط المتدافعين، أركض مثلهم، إلا أنني لم أستطع مجاراتهم، وقد يكون السبب جوعي المدقع، وخاصة أن معدتي خاوية لم يدخلها لا طعام ولا شراب منذ يومين. وفجأة سقطت على الأرض، لكن لا أدري لمَ سقطت، هل دفعني أحد فاقدي الضمير، أم أحدهم عرقل سيري بقدمه، مهما كانت الأسباب وجدت نفسي ممدداً على الأرض. حاولت النهوض، لكن هيهات، إذ إن الراكضين كانوا يدوسونني، ومن كثرتهم اختلط دمي بعرقي. وفي لحظة ما، استطعت النهوض ووقفت على قدميّ، وإذا بي أجد نفسي أمام مجموعة تركض نحوي، وكل منهم وعصاه بيده أو قضيب معدني أو يد معول

"قزمة"، كل واحد منهم يتقدم نحوي راكضاً ومن عينيه يتطاير الشرر، ومن فمه يسيل الزبد. هنا تيقنت أن تلك المجموعة كانت تركض للخلاص من هذه المجموعة.. اقترب مني أربعة أشخاص وبعد أن أمسكوا بي وأركعوني ثم ركبوا على ظهري، ثم راح أحدهم يصرخ ويقول "ها هو ذا أحد الخونة، ها قد أمسكنا بأحدهم، من يحب دينه وإيمانه وربه ورسوله فليضربه" ومع صراخه راح الجميع ينهال عليّ بالضرب، وبرغم توسلاتي واستغاثتي "آه يا أخوتي أنا غريب هنا، قدمت إلى استنبول بحثاً عن العمل، أنا داخل عليكم" إلا أنهم لم يتوقفوا عن الضرب، وهكذا أضحت كل توسلاتي "كضراط الطبال".

على ما يبدو من أعينهم التي يتطاير منها الشرر أنهم لن يستجيبوا لكل توسلاتي، كانوا يضربونني بكل قسوة، يرفعونني ثم يلقون بي على الأرض، ولكن لا أدري كيف خرج من بينهم واحد يتمتع بضمير يقظ وقال لهم:

-توقفوا، لنفهم ما في قلبه، ولك أنت يساري أم يميني؟

لم أفهم ما قاله، وماذا يعني يساري أم يميني؟ وأيهما يرضي رغبتهم وينقذني من بين أيديهم؟ لذلك وجدتني أقول "ما هذا الكلام الحمد لله جميعنا يساريون" لم أتمم عبارتي حتى انهالوا علي بالضرب المبرح، أحدهم ينهض من فوقي لينزل خمسة، شعرت أن الدنيا بأكملها تكومت فوقي، ولو لم أتظاهر بالموت، لقتلوني بلا شك، بصقوا علي وقالوا:

"شكراً لله ها قد تخلصنا من كافر آخر، لقد فطس عديم الضمير" ثم انصرفوا.

بعدما هدأت الأمور حاولت النهوض والسير، ولكن كيف، لقد انهارت قواي تماماً، لذلك رحت أزحف قليلاً ثم أعرج، وعلى هذه الحالة دخلت في مجموعة أخرى، هؤلاء أيضاً حاصروني ثم راحوا يسألونني "يساري أنت أم يميني؟".

قبل قليل كانوا سيزهقون روحي لأنني قلت يساري، وهل أنا أحمق حتى أقول لهم بأنني يساري، ولكن عندما قلت لهم كي أنقذ نفسي "شكراً لله أنا يميني" راحوا يكيلون لي شتى أنواع الضرب.. يا الله مهما قلت لهم فلن أتخلص منهم.. ومع ذلك فقد كانت هذه المجموعة أكثر رحمة من تلك، يكفي أنهم لم يجروا خلف أحد، وهكذا تخلصت منهم.

لن أطيل عليك يا عم، قلت لهم يساري فضربوني، قلت لهم يميني أيضاً فضربوني، هذه المجموعة ضربتني وتلك أيضاً ضربتني.. واضح أنني فقدت وعيي، ولكن كم من الوقت لا أدري، لأنني أفقت على لكزات أحدهم فتحت عينيّ وإذا بأحدهم والعصا بيده واقف فوق رأسي يبربر ويهمهم والشرر يتطاير من عينيه، سبحان الله، بني آدم، خلت أنه حي..

رحت أحدث نفسي وأدعوه قائلاً "إيه يا ربي العظيم، يا إلهي أنطقني بما يعفيني من شر هؤلاء، أعن عبدك الغريب" رغم أنني قلت له" أنا يا إخوتي قروي، ولم أنهِ خدمتي العسكرية بعد، وفي القرية لم يدخلونا المدارس، ولم يعلمونا فمن أين لنا أن نعرف يميننا من يسارنا.."، إلا أنه هزني عدة مرات وسألني "إذن ماذا أنت؟". نعم هكذا جيد إسألني من أكون لأجيبك، ولكن عندما قلت لهم "أنني عامل على باب الله" راح يضربني وهو يقول "عامل يعني كادح.. يعني

يساري" نعم رموني على الأرض وراحوا يدوسونني. الروح غالية جداً يا عم.. لا أدري كيف هربت ودخلت دكاناً، وهناك تجمعوا على بابه، راح صاحب الدكان يتوسل إلي "اخرج يا صاحبي، ستخرب دكاني. بالفعل إن لم أخرج فسيخربونها فوق رأسه لا محال، وإن خرجت فهذا يعني أنني انتهيت، غامرت وخرجت راكضاً، فلحقتني ثلة منهم، لكن ليست كالثلة التي تعرفها، لأنها كانت تتزايد باستمرار حتى ظننت أن أهل استنبول يجرون خلفي، حاولت أن أجري بكل استطاعتي، وهم كذلك، نعم يقولون أن الملاحَق يركض أسرع من الملاحِق، ولكن لماذا؟.. لأن الملاحَق يركض من حلاوة الروح.. نعم هذا صحيح..

ولك هل أتينا إلى استنبول كي نُضرب؟ على أية حال، لن أطيل عليك يا عم، فعندما عرفت أنهم لن يستطيعوا اللحاق بي، تابعت مسيري، وإذا بي أمام مجموعة أخرى تعترض مسيري، لذا رحت أراوغهم بطريقة الركض الملتوي، وإذ بي أمام لوحة كُتب عليها مخفر للشرطة، قلت ها قد أشفق الله علي، ووضعني أمام مخفر الشرطة. دخلت المخفر، أووه، شكراً إن أرواحنا آمنة في مخفر الدولة، وقبل أن أستجمع شتات عزيمتي، سألني أحد رجال الشرطة "ولك أما قلت أمام الجميع أنك يساري" ثم انهال علي برفسات"، قلت له: لا، بل هم أجبروني تحت الضرب على قول ذلك" لم يقتنع الخفير بما قلت لذلك تابع لكماته ورفساته:

-هيا قل أنت يساري؟.

-حاشا لله، لست كذلك، ومن أنا حتى أكون يسارياً؟

-هاه.. إذاً ستصبح يسارياً؟.

-استغفر الله.

-و لك قل هل أنت يساري؟
لم أستطع الصمود أكثر من ذلك:
-يا أخوتي أنا لست يسارياً ولا يمينياً، أنا مثلكم تماماً.
في أثناء ذلك قدم مسؤولهم الكبير وأمرهم قائلاً:
-توقفوا، سأعرف الآن إن كان يسارياً أم لا. ثم سألني
-هيا قل لنا من هو ناظم حكمت، وكيف تعرفه؟
لم أسمع باسم ذاك الشخص الذي ذكره، ولكن المصيبة الكبرى أنني أخشى أن أقول بأنني لا أعرفه و يكون هذا الشخص من المفترض معرفته وقد يكون من مسؤولينا، عندئذ سيغضبون علي لأنني لا أعرفه، وأعرض نفسي للضرب ثانية، لذلك اتكلت على الله ورحت أحدث نفسي داعياً إلى الله أن ينطقني بما فيه الخلاص، من ثم قلت له:
-ليحمه الله، مكانته محفوظة في قلوبنا، ليبق اسمه خالدا، رجل جيد وعظيم.
لم أكد أتمم عبارتي، حتى كانت نجوم الظهر تلمع أمام عينيّ، والصواعق تدق رأسي.
ضربوني كثيراً. فتحت عينيّ يا عم وإذ بي في هذه المشفى. عظامي مدقوقة، ومنذ أسبوع أتلوى من الألم، لا أدري هل سيستطيعون إعادة عظامي إلى مكانها، فأنا حتى الآن لا أفرق يدي عن رجلي.
هذا كل ما جرى لي يا عم. اكتب ذلك يا عم وقل لهم أن يرسلوا لي على وجه السرعة أجرة الطريق والثياب ويخلصوني من هذا المكان الذي يسمونه باستنبول. واكتب في ختام الرسالة: مع فائق تحياتي، ومع تقبيل أيدي الكبار وأعين الصغار".

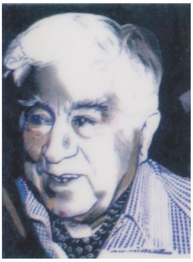
الفهرس

من منشورات دار علاء الدين في القصص والروايات

- الأقصوصة السوفيتية المعاصرة
  ....مجموعة مؤلفين
- ذكراه في القلب
  ....أنا غاغارين
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- طائر الكريم
  ....وهيب سراي الدين
- أسرار المدافن المصرية
  ....أجاثا كريستي
- الركض عبر أزقة الغربة
  ....طلال شاهين
- المهندسون
  ....وهيب سراي الدين
- حياة واحدة لا تكفي
  ....سعيد ابو الحسن
- محاكمة سقراط
  ....بوري فانكين
- رفيقة سفر
  ....صالح القباني
- مذكرات امرأة
  ....روشن بدر خان
- يسلم الوطن
  ....عزيز نيسين
- من مذكرات معلمة
  ....سعاد مكارم
- خصيصا للحمير
  ....عزيز نيسين
- موت يومي حقيقة ما
  ....جهاد عقيل
- الشمس في كفي
  ....ابتسام شاكوش
- المحطة الأخيرة
  ....ممدوح حمادة

بؤس الشيطان
..........بريم ستوكر

- حكاية البغل العاشق
  ....عزيز نيسين
- التجربة الأخيرة
  ....بوليا إفانوفا
- القيد
  ....فوزات رزق
- ربما غداً
  ....صلاح دهني
- عواء الرجل الميت
  ....طلال شاهين
- لأجلك يا خروف
  ....إياد ناصر
- هالوليا
  ....عادل ابو شنب
- جلنار
  ....ممدوح حمادة
- حكايات زمن يتصاعب
  ....الحبيب الحمدوني
- خيمة تخفق تحت الشمس
  ....وهيب سراي الدين
- دف الصخر
  ....مطاع القاق
- شوام ظرفاء
  ....عادل ابو شنب
- مذكرات حبة قمح
  ....ريما فليحان
- أحلام إيفان المأساوية
  ....د. ماجد علاء الدين
- فالس الوداع
  ....ميلان كونديرا
- لا بديل
  ....عبد الناصر متعب المغوش
- قاعة الأرزاق
  ....منصور ناصر الدين



هذا الكتاب...

مجموعة قصصية ناضجة وجذابة للكاتب العالمي الكبير عزيز نيسين، تتسم ببعديها الإنساني والتقدمي، إذ استطاعت تحويل الحزن إلى فرح وتمكين النفس الإنسانية أن تتحمل قدرها من خلال الابتسامة التي تجابه قسوة الحياة وعبثها، ومن خلال السخرية اللاذعة والتقاط المفارقة الكامنة في الكثير من تفصيلات الحياة، وكسر حدود الجدية المفرطة والتجهم الكريه.

إنها مجموعة تتميز برشاقة الأسلوب وبراعة السبك وجمال الإيقاع، ورسم الابتسامة والإضحاك من خلال اللعب على الكلمات واستثمار المواقف المتناقضة.

...الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع

سوريا ـ دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨

هاتف ٥٦١٧٠٧١

فاكس ٥٦١٣٢٤١